وزارة الارشاد القومى
الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة
٦٨٥



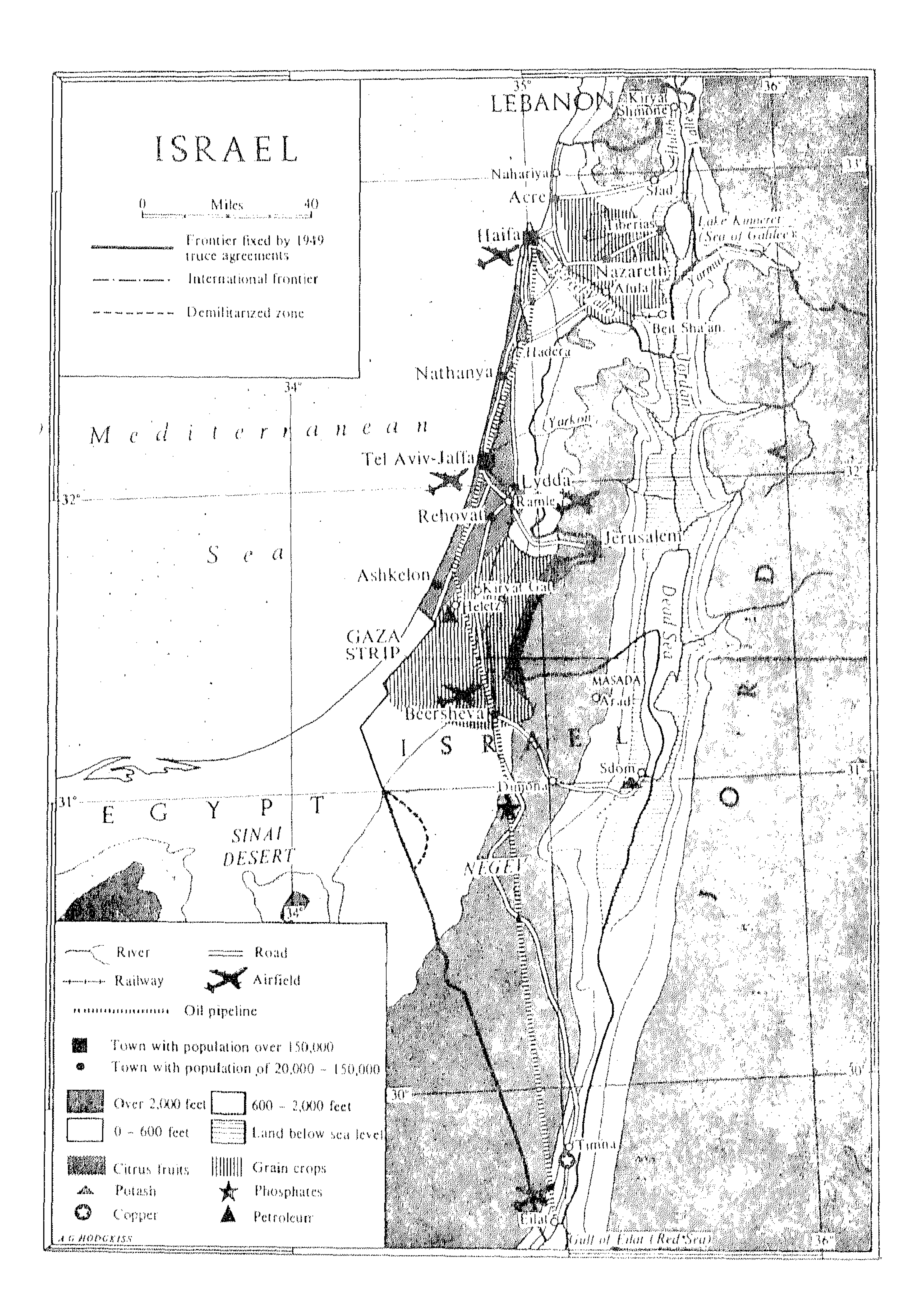
إسرائيل

تأليف
اليزابيث نوسبوم

وزارة الارشاد القومى
الهيئة العامة للاستعلامات
كتب مترجمة
٦٨٥

إسرائيل

تأليف
اليزابيث نوسبوم



ISRAEL
0 Miles 40
Frontier fixed by 1949 truce agreements
International frontier
Demilitarized zone
LEBANON
Kiryat Shmone
Nahariya
Acre
Safad
Haifa
Tiberias
Lake Kinneret (Sea of Galilee)
Nazareth
Afula
Beit Sha'an
Jordan
Hadera
Nathanya
Yarkon
Mediterranean Sea
Tel Aviv-Jaffa
Lydda
Ramle
Rehovat
Jerusalem
Ashkelon
Kiryat Gat
Heletz
GAZA STRIP
Dead Sea
MASADA
Arad
Beersheva
ISRAEL
Sdom
Dimona
EGYPT
SINAI DESERT
NEGEV
JORDAN
Timna
Eilat
Gulf of Eilat (Red Sea)
River
Road
Railway
Airfield
Oil pipeline
Town with population over 150,000
Town with population of 20,000 – 150,000
Over 2,000 feet
600 – 2,000 feet
0 – 600 feet
Land below sea level
Citrus fruits
Grain crops
Potash
Phosphates
Copper
Petroleum
A G HODGKISS

ISRAEL

BY

ELIZABETH NUSSBAUM

إسرائيل

يصعب دائماً التعميم فى حالة وصف البلدان ، وينطبق هذا على إسرائيل بصفة خاصة ، تلك الدولة التى لم تقم إلا فى عام ١٩٤٨ ، والتى لم يولد أكثر من نصف سكانها فيها ، بل هاجروا إليها من كافة أرجاء العالم .

ونتيجة لهذا تعتبر إسرائيل خليطاً لتقاليد متباينة ، وأساليب حياة مختلفة أكثر من معظم بلاد العالم . وهناك قصة يهودية تقول : إنك لو جمعت عشرة من اليهود فى جزيرة قاحلة جرداء ، فإنهم سيكونون أحد عشر حزباً سياسيًّا ، وقد قيل هذا فى الأصل لتصوير تنوع وتباين الحياة اليهودية فى المنفى أو ما يسمون بيهود الشتات [١] أى الذين يعيشون خارج دولة إسرائيل قبل إنشائها ، وعلى هذا القول يمكن أن ينطبق على إسرائيل كذلك . فى الوقت الذى هاجر فيه اليهود إلى فلسطين كما كانت تسمى المنطقة التى أنشئت فيها إسرائيل قبل عام ١٩٤٨ — انتقلت معهم التقاليد اليهودية من تفكير مستقل ، وقدرة على التعبير عن هذا التفكير ، ونتيجة لهذا فإن عناصر الخليط الإسرائيلى مازالت تحتفظ بطابع كل منها المتميز ، بل إنها تميل إلى الصدام مع كل ما يجاورها . وعلى الرغم من أن تعداد السكان فى إسرائيل اليوم لا يزيد كثيراً على مليونين ونصف المليون نسمة فإنها تضم نماذج متنافرة ، ومتعارضة تبدو — للغريب — محيرة وعلاوة على هذا فإن مرور أقل من عقدين من الزمن على إنشاء هذه الدولة ، شهدا حرباً فى بدايتهما فى الوقت الذى قامت فيه جيوش خمس دول عربية بغزو الدولة الناشئة ، وتخللهما حربان (حملة السويس عام ١٩٥٦ ، وحرب

(١) الدياسبورة — أو يهود الشتات — كلمة مشتقة عن كلمة يونانية تعنى « المتناثر » وهى تشير إلى تفريق اليهود بعد الغزو الرومانى لفلسطين ، والكلمة العبرية المقابلة لها هى كلمة جالوت والتى تعنى المنفى .

يونيه ١٩٦٧) ، لم يتح لها وقتاً كافياً لكى تستقر الأمور فيها ، ومن المتوقع أن تشهد العشرون عاماً المقبلة العديد من التغييرات كما حدث فى الأعوام السابقة .

وتقابلنا صعوبة أخرى فى محاولة معرفة «كيف تبدو إسرائيل» وهى أنه رغم حداثة هذه الدولة فإن الأرض التى انشئت عليها ، والمفهوم الذى قامت على أساسه كدولة يهودية فى فلسطين ، ليسا كذلك ، إذ أن الهدف الأسمى الخاص بعودة اليهود إلى فلسطين هو أمل قديم ، ظل يشكل حجر الزاوية فى الديانة اليهودية لعدة قرون . كذلك فإن هذا الجزء من الشرق الأوسط حيث أنشئت إسرائيل ، يرتبط — بلا جدال — بالديانتين المسيحية والإسلامية وبصرف النظر عن آرائنا الدينية ، سواء أكنا مؤمنين أم وثنيين فربما كانت لدينا جميعاً بعض المعرفة ، وبعض المشاعر القوية تجاه الأحداث التى كانت فلسطين مسرحاً لها فى أوقات مختلفة من تاريخها . وإذا نظرنا إلى تاريخ فلسطين الحديث فقط ، أى منذ وضعتها عصبة الأمم المتحدة تحت الانتداب البريطانى لمدة ثلاثين عاماً حتى إنشاء دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ ، وجدنا أنه يصعب على من يتذكر هذه الفترة ، أو من سمع عن الاضطرابات التى شهدتها والمشاعر القوية التى تمخضت عنها ، معالجة الموضوع بعقل متفتح تماماً ، فلا بد أن يتولد — عن وعى أو غير وعى — شىء من التعصب ، يصاحبه نوع من التصور عن الصورة التى ينبغى أن تبدو عليها إسرائيل .

ويشعر المرء بادئ ذى بدء ، بأن بلداً فى حجم إسرائيل يجب أن يكون متجانساً تماماً ، فلها مساحة ويلز نفسها ، ولكن عدد سكانها أقل بعض الشىء . وتمتد هذه المنطقة الصغيرة على مسافة ثلاثمائة ميل ، ويسود نصفها الشمالى وهو جزء من الهلال الخصيب ، مناخ البحر المتوسط ، أما النصف الجنوبى فهو مجرد صحراء ، مناخ أطرافه المطلة على البحر الأحمر شبه استوائى . وقد ظلت هذه الرقعة الصغيرة من الأرض خلال عصور التاريخ المختلفة جسراً

للحضارات عبره التجار والجيوش ، وملتقى لأنواع متعددة من المناخ ، حيث تتغير فيها طبيعة الأرض بصورة سريعة ومفاجئة ؛ الأمر الذى يولد إحساساً خاطئاً بأنها تشكل مساحة أكبر مما هى عليه فى حقيقة الأمر . فعلى سبيل المثال يمكنك الانتقال من القدس ، التى تقع على ارتفاع ٢٥٠٠ قدم فوق سطح البحر ، إلى البحر الميت على ارتفاع ١٢٠٠ قدم تحت سطح البحر فى مدى ساعات قليلة . ومنذ شهر يونية عام ١٩٦٧ استولت إسرائيل على مساحات كبيرة من الدول المجاورة ، وتمتد سيطرتها الآن من قناة السويس حتى الضفة الغربية لنهر الأردن ، واحتلال إسرائيل لهذه المناطق يعد احتلالا عسكرياً فيما عدا مدينة القدس القديمة التى ضمتها إسرائيل رسميا إلى أراضيها. ومن المحتمل أن تطرأ بعض التعديلات على الحدود فى المستقبل ، ولكن عند مناقشة جغرافية إسرائيل اليوم فإننا مازلنا نتناول إسرائيل الأصلية ، تلك الأرض التى تمتد داخل الحدود التى حددتها اتفاقيات الهدنة بعد الحرب الأولى بين العرب وإسرائيل .

وتوجد أساساً أربعة أنواع مختلفة من المناظر الطبيعية فى إسرائيل . فهناك سلسلة من التلال تجرى فى الوسط كالعمود الفقرى وتشكل جبال الجليل الأعلى فى الشمال والتلال اليهودية حول القدس ، وهى تلال صخرية جرداء تتخللها آثار طرق قديمة يرجع تاريخها إلى عصور الديانات الأولى . وتخفف أشجار الصنوبر ومزارع الكروم والزيتون — التى تحيط بالقرى والمستعمرات — من طبيعة التلال القاسية وقد أدى تطبيق برنامج قومى لإعادة زراعة الغابات إلى تغيير مناطق بأسرها ، ولكن المعركة ضد عوامل التعرية بطيئة وباهظة التكاليف ، ويتضح للمرء جيداً كيف تستطيع التكنولوجيا الحديثة أن تحقق تقدماً ضخماً فى هذا المجال إذا ما توفرت لها الأموال والمهارات اللازمة . ورغم حدوث بعض الأخطاء التى أدت إلى تبديد مبالغ ضخمة فى مشروعات عقيمة غير مثمرة ، فإن الإسرائيليين قد حققوا نجاحاً كبيراً فى هذه المنطقة من الشرق الأوسط حيث تضاعف عدد

سكانها ، تلك المنطقة التى لم تكن تصلح منذ خمسين عاماً إلا للرعى وزراعة بعض الكروم .

أما فى الشرق — وبمحاذاة هذه السلسلة من التلال — فإنه يظهر شرخ عميق فوق سطح الأرض حيث يجرى نهر الأردن فى مستوى تحت البحر تقريباً . ويعتبر البحر الميت المنطقة الأكثر انخفاضاً فى إسرائيل حيث تزداد نسبة الملوحة بحيث يتعذر أن يعيش فى هذه المنطقة حيوان أو ينمو نبات ، ومن هنا كانت تسميته بالبحر الميت . ويوجد إلى جوار مصنع البوتاس فى سيدوم — التى لم تعد مكاناً قفراً كما كانت سابقاً — جبل ضخم من الملح يطلق عليه محليًّا اسم « زوجة لوط » ويرمز لجو العزلة الموحشة الذى يخيم على وادى البحر الميت . وكانت حدود إسرائيل حتى عام ١٩٦٧ تتعرج على طول هذا الوادى لتشمل بحر الجليل وجزءاً ضئيلا من البحر الميت ، ولكنها لم تكن تضم من نهر الأردن سوى جزء صغير جدًّا . وفى هذا الجزء من العالم ، حيث للمياه العذبة قيمة الذهب ، فإن هذا التقسيم الجائر لمصادر المياه ظل دائماً مصدراً للصدام بين إسرائيل والدول العربية المجاورة لها .

وتحتل الصحراء نصف مساحة إسرائيل حيث توجد صحراء النقب فى الجنوب حافلة بشواهد تؤكد وجود مستعمرات بها فيما قبل التاريخ وفى عصور الديانات الأولى . كذلك فإن النقب تعتبر مقصد علماء الآثار وقبلتهم كباقى هذه المنطقة من الشرق الأوسط ، ولم يكن يقطن بها ، قبيل إنشاء المستعمرات الإسرائيلية ، سوى البدو ، وما زال هناك حتى اليوم — عديد من مضاربهم التى تضم مجموعات من خيام قاتمة اللون ، وجمال وأغنام ترعى الكلأ المنتشر بالمنطقة ، ويحضر البدو ماشيتهم إلى السوق فى بير سبع فيضفون عليها لمسة من البهجة ، بدونها تصبح كالمدن النائية على الحدود صارمة القسمات . ويلجأ البدو إلى ظل المقاهى أو يجلسون القرفصاء فى السوق فى حين تستمر المساومات ، ثم يغادرون المدينة عند الغروب إلى الصحراء مرة أخرى ، ولا يوجد فى جنوب بير

سبع سوى عدد ضئيل من المستعمرات الدائمة متناثرة هنا وهناك . وقد يحيط بكل منها شريط ضيق من الخضرة،ورغم أن محاولات استصلاح الأراضى نجحت فى شمال النقب بالقرب من بير سبع فإنها باهظة التكاليف بحيث يتعذر تعميمها على نطاق واسع فى الجنوب ، ولهذا تحيط الصحراء بحدود كل مستعمرة وكأنها تريد أن تطبق عليها . وتختلف هذه الصحراء عن الصحراء الكبرى بكثبان رمالها لأنها منطقة جبلية قاحلة تتخللها تلال قد تآكلت فاتخذت أشكالا غريبة ، ووديان عميقة ربما تتفجر منها المياه مرة كل عام ثم يسودها الجفاف لمدة اثنى عشر شهراً أخرى . ورغم صعوبة الحياة وكآبتها فى صحراء النقب فإن لها قيمة كبرى بالنسبة لإسرائيل لما تحتوى عليه من ثروات معدنية ، ولوجود ميناء إيلات عند طرفها المطل على البحر الأحمر كمنطلق للتجارة مع أفريقيا والشرق الأقصى .

ورغم أن العمل يجرى فى تنمية مناطق جديدة فى النصف الجنوبى من إسرائيل أملا فى أن يستوطنها مزيد من المهاجرين ، فإن الغالبية العظمى من السكان تعيش فى الشمال لأسباب تتعلق بالمناخ . ومع هذا ، فالجو حار جداً فى الشمال إذا ماقورن بالمستويات الإنجليزية ، حيث يزيد متوسط درجة الحرارة فى الصيف هناك على أعلى درجة حرارة فى الصيف فى إنجلترا بما يتراوح بين عشر وخمس عشرة درجة فهرنهايت .

ويتعطش الناس للأمطار التى تسقط مع بداية الخريف ، لأن الجو الحار يستمر طويلا وبشكل منتظم ، تماماً مثلما يتطلع الناس فى شمال أوربا إلى الدفء الذى يحل مع الربيع بعد شتاء شديد البرودة .

وتغطى البلاد ، فى نهاية الصيف ، الذى يمتد بين شهرى أبريل ونوفمبر تقريباً ، موجة من الأتربة وتختفى الخضرة من التلال والمزارع لتصبح جرداء قاحلة يكسوها الطين المحروق .

ولا يحمل الشتاء إلى صحراء النقب سوى انخفاض طفيف فى درجة الحرارة وأقل كمية ممكنة من الأمطار ، بل ربما تمر بضع سنوات دون سقوط أية

أمطار . أما فى الشمال فيشهد الشتاء فصلاً كثير الأمطار وإن كان قصيراً فالأمطار التى تسقط على القدس ، وهى أقل قليلا من أمطار لندن وإن تركزت فى أربعة شهور فى السنة ، قد تسبب خطراً عظيماً إذا حولت أتربة الصيف إلى أوحال فى وقت قصير . ولهذا فإن أحذية المطر والمعاطف ملابس مألوفة صيفاً وشتاء علماً بأن المناخ يفرض نوعاً من البساطة بالنسبة لما يلبس فربما تسقط بعض الثلوج على الأراضى المرتفعة فتكسر فروع أشجار الصنوبر التى أصبحت هشة بسبب الجفاف الطويل ، وعموماً فالشتاء معتدل إذ يعقب هطول الأمطار أيام تسطع فيها الشمس ، وتصفو فيها السماء . وعندما يأتى الربيع يتنفس الناس الصعداء مرة أخرى ، فرغم أن حاجتهم للأمطار كحاجة النبات للماء ، فإن للأمطار مضارها فى بلد تكسى أرضيات منازله بالبلاط ولا تستخدم السجاجيد فيها إلا قليلا إتقاء للحرارة فى الخارج ، وتوفيراً لأعلى درجة من البرودة فى الداخل . إن أنشودة سليمان التى ورد ذكرها فى الإنجيل والتى تصف شعور الفرحة بحلول الربيع ، تصور قدومه وانقضاءه فجأة قبل أن يستمتع المرء طويلا بجماله .

وفى الربيع تتفتح مزارع الموالح ، وتزدهر على طول السهل الساحلى ويفوح الهواء بأريجها ، وعندما تهب الرياح الجافة من الشرق فى الأيام الحارة فإنها تصبح خانقة لكل من يمر بجوار مزارع الموالح .

وتعتبر المنطقة الممتدة على طول الساحل والتى يطلق عليها اسم « حزام الموالح » بمثابة قلب إسرائيل ، والعاصمة الرسمية هى القدس ، غير أن الكثافة السكانية تصل إلى أقصاها حول تل أبيب وحيفا ، إذ تضم هاتان المدينتان وضواحيهما نصف سكان إسرائيل تقريباً ، ويزحف العمران سريعاً نحو شريط الأرض الضيق الذى يربط بينهما كلما زحفت المدن الأكبر على المدن الأصغر منها ، الأمر الذى يؤدى إلى إقامة ضواح جديدة ، ويعيش أربعة أخماس سكان إسرائيل حياة حضرية بشكل أو بآخر — فى مدينة أو بلدة صغيرة — ويتفاخر الإسرائيليون بالمعيشة فى المدن كالإيطاليين أكثر مما نتفاخر نحن بذلك فى

إنجلترا . فعندما يتجاذب بعض الغرباء أطراف الحديث وهم يستقلون قطاراً فى إنجلترا لا بد وأن يبدءوا بالحديث عن الجو ، أما الإسرائيليون فيبدءون حديثهم ، بالتأكيد ، بالسؤال عن المكان الذى يقطنه كل منهم ولماذا يفضله عن أى مكان آخر ؟

وفى الحقيقة فقد عملت كل مدينة على تشكيل طابع خاص مميز لها وحدها . فيسخر سكان تل أبيب من القدس ويعتبرونها كئيبة فى حين يرى سكان القدس أن تل أبيب مدينة الضوضاء الأمر الذى يعنى أن القدس — وهى مقر الحكومة ، والجامعة الرئيسية — أكثر هدوءاً من تل أبيب التى يسودها جو أكثر مرحاً بسبب وجود عدد أكبر من المسارح والنوادى الليلية بها . وما زالت القدس تعانى من تقسيمها ظلماً فى عام ١٩٤٩ — عقب انتهاء الحرب بين العرب وإسرائيل — إلى شطرين بوساطة خط وقف إطلاق النار الذى تحول فيما بعد ليصبح حدوداً بينهما . ونتيجة لهذا كان نموها فى اتجاه واحد هو اتجاه الغرب ، فى حين ظل مركز المدينة التجارى والإدارى فى الطرف الشرقى . وتم توحيد المدينة بشطريها ، بعد ضم القطاع الشرقى — الذى كان يتبع الأردن — إليها ، فنزعت الأسلاك الشائكة ، وأزيلت الأسوار التى كانت تفصل بين القطاعين . ويسمح لسكان أى من القطاعين بحرية المرور إلى القطاع الآخر . وتزدحم مدينة القدس القديمة الغنية بالآثار والمخلفات اليهودية ، والمسيحية ، والإسلامية بالزائرين من الجانب الإسرائيلى الذين يفدون بصفة خاصة لمشاهدة حائط المبكى ، وهو الجزء الوحيد المتبقى من المعبد اليهودى الذى دمره الرومان .

أما فى داخل أسوار المدينة فتزدحم المساكن والحوانيت على جانبى الشوارع الضيقة المتعرجة ، والمكان الفسيح الوحيد هو فناء جامع قبة الصخرة ، وقد أثارت إسرائيل جدلا شديداً عندما قامت بهدم بعض المنازل الموجودة بالمنطقة لتسهيل عملية المرور إلى حائط المبكى المجاور للجامع .

وتبدو القدس العربية ، من خارج أسوار المدينة ، شديدة الشبه بالمناطق

السكنية القديمة فى القدس الجديدة (الإسرائيلية) بمساكنها المريحة المتينة ، وطوابقها المبنية بحجر ذى لون ذهبى باهت تحيط بها حدائق صغيرة ومجموعات من أشجار الصنوبر . ولكن بينما ظلت القدس العربية أصغر حجماً وأكثر تلاحماً وتماسكاً ، امتدت القدس الإسرائيلية غرباً ، وتبدو ضواحيها — حتى الآن — وكأنها منطقة حديثة النمو ، فالأشجار والشجيرات التى زرعت لتغير من طبيعة أرضها الجرداء لم تنم بالدرجة التى يزحف بها العمران على هذه المناطق .

وبمقارنة هذا بتل أبيب نجد أن تخطيطها بدأ فى حقيقة الأمر من لاشيء ، وسط الكثبان الرملية منذ نصف قرن من الزمان ، وقد أصبحت الآن مركز إسرائيل المالى والثقافى . ويبلغ تعداد سكانها قرابة أربعمائة ألف نسمة ، ورغم أنها أكبر من القدس بكثير فإنها أكثر تلاحماً بشوارعها الواسعة المستقيمة ، والصفوف المتراصة من المكاتب والمساكن ، وهى مبان عملية لا تتسم إلا بالقليل من مظاهر الجمال ولكن الأشجار التى تمتد على جانبى الشوارع كلها تخفى بعض ملامح المدينة المقفرة وتعتبر تل أبيب — أولا وقبل كل شيء — إحدى مدن البحر المتوسط التى تسودها الجلبة والضوضاء والألوان ويمكن القول بأن الضوضاء — وبصفة خاصة — من مميزات هذه المدينة . ورغم ما يراه المرء من مبان عالية هنا وهناك كما يحدث فى كل مدينة إسرائيلية ، ومعظمها منخفض إذا ما قورن بالمستويات الأوربية ، فإنه مهما زاد عدد السكان ، ومهما أنشئ من مبان حديثة فاخرة فإن جو المدينة الصغيرة لا يمكن أن يختفى تماماً من تل أبيب . وتأخذ معظم الحياة الاجتماعية فى إسرائيل مجراها خارج المنازل بسبب المناخ . وفى تل أبيب يعتبر الجلوس فى الشرفات (كل الشقق بها شرفات) أو على المقاهى من السمات البارزة للمدينة . وفى أمسيات الصيف تزدحم الأرصفة إلى ما بعد منتصف الليل . وسكان إسرائيل صغار السن — فعمر أكثر من نصفهم أقل من ثلاثين عاماً — تبدو عليهم مظاهر الشباب ودلائل الصحة بشكل ملفت للنظر . ويبدأ العمل فى المكاتب فى وقت مبكر فى السابعة صباحاً تقريباً ، الأمر

الذى يتيح وقتاً كافياً للراحة بعد الظهر لكى يستطيع الناس الاستمتاع بنسيم الليل العليل .

والاسرائيليون اجتماعيون جداً ، فهم يحبون الصحبة والسمر . فى عام ١٩٣٦ ، جاءت إلى فلسطين لجنة ملكية بريطانية هى « لجنة بيل » لإعداد تقرير عن الموقف فيها . وفى الجزء الخاص بحالة الجالية اليهودية هناك ذكر التقرير بوضوح أن « اليهود فى فلسطين سعداء » . وما زال هذا القول صحيحاً حتى الآن بالرغم من التيارات المتعارضة وجميع أنواع التوتر مما سنتعرض له فيما بعد . وتنعكس هذه السعادة على الحياة الاجتماعية بحيث يصبح التزاور بين الأصدقاء أو اصطحابهم إلى المسرح أو السينما فى المساء أمراً شائعاً .

وهناك إقبال شديد على اللهو والتسلية ، وكما يتوقع المرء فإن المستويات الثقافية تكون عالية فى بعض المجالات . فقد اكتسب اليهود أثناء وجودهم بالمنفى وقبل إنشاء إسرائيل بمدة طويلة سمعة طيبة كموسيقيين ، واليوم أصبح لأوركسترا إسرائيل الفيلهارمونى سمعة دولية ، ولكن ما زالت بعض المجالات الأخرى كالمسرح والفن ، حيث نتوقع أن تظهر آثار التقاليد القومية ، تستمد إلهامها من الخارج رغم ما تشهده من تجارب متعددة . وتوجد فرق مسرحية دائمة فى كل المدن الرئيسية وعدد الكتاب المسرحيين الإسرائيليين فى تزايد مطرد ولكن ما زالت معظم المسرحيات التى تعرض مترجمة عن لغات أجنبية . وينطبق الشىء نفسه على الأدب ، فهناك إقبال شديد على الأدب بكافة أنواعه ، ولكن العلاقات الثقافية بين إسرائيل وأوربا تجعل من الحتم أن تفوق أعمال الكتاب الأجانب أعمال أقرانهم المحليين عدداً . وبالرغم من هذا اكتسب بعض كتاب إسرائيل سمعة دولية ، ونذكر منهم على سبيل المثال الشاعر بياليك قبل الحرب العالمية الثانية ، وشاموئيل أجنون الروائى وكاتب القصص القصيرة والذى فاز بجائزة نوبل للأدب فى عام ١٩٦٦ . وفى الوقت نفسه يظهر من بين الجيل الأصغر من الإسرائيليين كتاب وشعراء لا يعرف عنهم العالم الخارجى سوى القليل ، أو ربما لا يعرف عنهم شيئاً ألبتة وإن كانوا معروفين جيداً

داخل إسرائيل ، ومن بينهم شعراء مثل يهودا إميخيا وناثان زاشي وكتاب من أمثال موشي شامير وأماليا كاهانا كارمون . وترجع أهميتهم أساساً إلى نجاحهم فى خلق نوع من الأدب اليهودى يعد أدباً إسرائيليًّا خالصاً ، بمعنى أنه لا يشوبه — عن عمد — التقاليد الأدبية التى اتسمت بها فترة المنفى . وقد تلقى هؤلاء الكتاب تعليمهم فى إسرائيل ، وكلما زادت نسبة المواليد فى إسرائيل فإن الأمر لن يحتاج إلا لمزيد من الوقت لكى يظهر كتاب آخرون مثلهم .

وإذا عدنا للحديث عن المدن فهناك حيفا إحدى المدن الثلاث الكبرى وهى الميناء ومركز الصناعة الرئيسى . وربما يتبادر إلى الأذهان أول ما يتبادر صور المصانع بمداخنها ودخانها ، ولكن رغم أن لحيفا جانبها القبيح فى المنطقة الصناعية بالقرب من الميناء ، فهى فى واقع الأمر أكثر المدن الثلاث جمالا . إذ أنها تعلو منحدرات جبل كارميل — التى تبدو كحافة غابة أكثر من كونها جبلا — حيث يمكن مشاهدة البحر وتلال الجليل الأعلى من قمتها وتعتبر ، حيفا عاصمة الجزء الشمالى من البلاد وبخاصة بالنسبة للمستعمرات الريفية ، وهى القرى التعاونية والكيبوتزات[1] التى يتركز معظمها فى هذه المنطقة . وهى مدينة حديثة كتل أبيب ، ولكنها أكثر ارتباطاً ببقية البلاد مما يسبغ عليها جوًّا أقل تحضراً وثقافة من تل أبيب إذ يتوافد عليها سكان المستعمرات من الجليل الأعلى ، أو سهول جزر « يل » الغنية أو وادى نهر الأردن فى سيارات نقل ضخمة لتسويق منتجاتهم . وهم أناس مشغولون يلبسون أثواب العمل أو سراويل قصيرة . كل همهم إنجاز أعمالهم بأسرع ما يمكن ليغادروا المدينة بجوها الملبد ويعودوا إلى مستعمراتهم الخضراء الظليلة . ويظهر التناقض واضحاً بين حيفا والسوق الموجودة ببلدة تقع على الطرف الآخر من خليج حيفا ، هى عكا ، وهى بلدة شبه عربية ، وفيها يدير الناس أعمالهم فى السوق على مهل ودون أدنى قلق ، وكأن الوقت كله ملك أيديهم ، وربما كان مرجع ذلك هو الإحساس

---

(١) الكيبوتزات عبارة عن مستعمرات جماعية كاملة تكون فيها كل الممتلكات والأعمال والمكافآت مشاعا يقسم بالتساوى على الجميع .

بالزمن الذى يخيم على هذه البلدة العتيقة . ويرمز الفارق بين هاتين المدينتين — حيفا وعكا — إلى اختلاف الطباع بين الشعبين العربى واليهودى .

وكما سبق أن أشرنا يسكن معظم الإسرائيليين فى المدن ، ولا يعيش فى الريف سوى خمس السكان ، ويعيش كل فرد من هؤلاء تقريباً إما فى مستعمرة تعاونية أو جماعية ، وهذا يعنى أن عدد القرى « العادية » كالموجودة فى إنجلترا والتى تضم ملاك أراض وفلاحين مستقلين ، ضئيل للغاية . فالغالبية العظمى من المستعمرات الريفية فى إسرائيل قرى — أو موشاف كما يطلق عليها بالعبرية وتعنى « مستوطنة » — تدار إقتصادياتها على أساس تعاونى بدرجات متفاوتة حيث يقتسم الجميع الآلات الزراعية وكذلك الأرباح . وهناك « الموشاف عوفديم » أو مستعمرة العمال حيث يمتلك كل عضو فيها مزرعة صغيرة يفلحها هو وعائلته ، ولكن تسويق إنتاجها يتم بوساطة وكالة تعاونية مركزية ، ولا تمتلك « الموشاف » جميع الآلات وإنما تمتلك جزءاً منها فقط ، وتقوم جمعية سكان « الموشاف » بانتخاب مجلس تكون مهمته الموافقة على قبول الأعضاء الجدد والإشراف على شئون المستعمرة . وبين الموشاف عوفديم (أو مستعمرة العمال) والكيبوتز يوجد « الموشاف شتوفى » أو المستعمرة التعاونية ، حيث تمتلك كل أسرة منزلها الخاص وترعى شئونها بنفسها فى حين تدار المستعمرة كمشروع اقتصادى جماعى حيث تصبح الآلات ملكاً للجميع ، ويقتسم الأعضاء الدخل وعلى حين ظلت « الموشاف عوفديم » (مستعمرة العمال) زراعية فى معظمها فإن « الموشاف شتوفى » (المستعمرة التعاونية) عملت على تنمية بعض الصناعات الخفيفة إلى جانب الأعمال الزراعية مثاما يحدث فى كثير من الكيبوتزات التى تدير الآن مشروعات للصناعات الخفيفة . ويزيد عدد المستعمرات التعاونية على عدد الكيبوتزات ، إذ توجد ٤٠٠ مستعمرة تعاونية فى مقابل ٢٥٠ كيبوتزا .

ولكن حداثة نظام الكيبوتزات ، وحقيقة أن كثيراً من كبار الساسة الإسرائيليين جاءوا من الكيبوتزات ، جعلها تحظى بمعظم الدعاية . ولهذا نجد أن كثيراً من الناس الذين لا يعرفون شيئاً عن إسرائيل سمعوا عن الكيبوتزات

بطريقة أو أخرى .

وقد أنشئ أول كيبوتز كتجربة أيديولوجية أساساً ، ولكنه كان استجابة لاحتياجات أخرى كذلك علاوة على المطالب الثقافية البحتة ، فى ذلك الوقت منذ نصف قرن شعر زعماء الجالية اليهودية فى فلسطين بأنه من الأهمية بمكان ، لأسباب تتعلق بالدفاع والاستراتيجية ، إقامة مستعمرات وثيقة الترابط والتلاحم فى المناطق الريفية . أما بالنسبة لمن كانوا يفلحون الأرض أنفسهم فقد كان وضع أسس حياة جماعية مشتركة ضرورة عملية . فعندما جاءت أول مجموعة من المهاجرين اليهود إلى وادى الأردن ، وبدأت فى محاولة استصلاح الأرض التى كانت مستنقعات الملاريا تغطى أجزاء كبيرة منها ، كانت بحاجة إلى استخدام كل العمالة المتوفرة ، وهكذا بينما كانت تتخلف امرأة أو امرأتان لرعاية الأطفال وبعض الشئون المنزلية الأخرى ، كان باقى النساء يخرجن للعمل جنبا إلى جنب مع الرجال فى الحقول .

وتمخض وجود هذه المجموعة الأولى من الرواد فى وادى الأردن عن فكرة الكيبوتز كما هى الآن ، على شكل مجتمع صغير يضم قرابة مائة أسرة . ويحدد حجم الكيبوتز الحركة التى ينتمى إليها ، فهناك أربع حركات أكبرها هاشومر هاتسير اليسارية ، وتعيش الأسر فى الكيبوتز معاً على أساس المشاركة فى كل شيء ، فالأرض ملك للجميع ، الذين يشتركون فى تنظيم العمل بها . وليست هناك أجور محددة كما نفهمها ، وإنما يحصل كل عضو من أعضاء الكيبوتز على مصروف للجيب ، وعلى السكن ، والمأكل ، والملبس ، وكل ضرورات الحياة ومستلزماتها فى مقابل عمله ويتساوى فى هذا الجميع . ويتناول جميع أعضاء المستعمرة طعامهم معاً فى صالة الطعام المشتركة . ويعيش الأطفال فى معظم الكيبوتزات فى منازل منفصلة خاصة بهم ، ويسمح لهم بزيارة آبائهم فى مساكنهم أو شاليهاتهم فى المساء . وربما كان من المثير مناقشة أثر هذا الوضع من الناحية النفسية على كل من الأطفال والآباء ، فقد كتب وسيكتب عن هذا الموضوع الكثيرون . ويعتبر نظام الكيبوتز مجرد نظرية ، ولكنها نظرية بالغة الأهمية لما

لها من تأثير على خيال الناس .

ونجد فى كثير من البلدان تناقضاً واضحاً بين حقائق الموقف والمثل العليا أو ما يمكن تسميته « بالأساطير » . ولا يستطيع المرء أن يسقط هذه الأساطير من حسابه مهما كان أمرها لما لها من تأثير قوى على سلوك الناس وتصرفاتهم . وإذا نظرنا إلى إسرائيل من الناحية الإحصائية البحتة فإنها تبدو مجتمعاً حضرياً إلى حد كبير ، ولكن توجد إلى جانب هذا عقيدة هامة ، وهى عقيدة الرواد الأول ، التى تكشف عن جوانب متعددة من الشخصية الإسرائيلية ، ويبدو أثرها واضحاً فى الملاحظات العابرة ، والعادات الاجتماعية ، بل وحتى فى السياسات القومية .

وتعبر الكلمة العبرية شالوتز ومعناها « الرائد » عن هذه العقيدة . ويمكن استخدام هذا اللفظ بأشكال ومدلولات مختلفة ومتعددة ، فقد يكون تعبيراً عن الإعجاب . عندما نشير إلى المستوطنين الأوائل أو الشالوتزيم ، أما إذا تحول اللفظ إلى«شالوتزى » فإنه يصبح علامة على الاستهانة أو الاحتقار ،وذلك عندما يصف سكان تل أبيب مثلا أحد أقاربهم من الأجلاف القادمين من إحدى الكيبوتزات والذين يصرون على انتقاد وسائل الرفاهة البورجوازية التى يجدونها فى بيوتهم ، وعندما نستخدم لفظ شالوتزيوت فإننا نشير إلى مفهوم الريادة المجرد . وتقابلك هذه الكلمة كجزء من تراكيب لغوية مختلفة لأن ما تحمله من معان يفوق مرادفها فى اللغة الإنجليزية . فقد رأى الصهاينة الأوائل (وهم أتباع الحركة الصهيونية ، وهى حركة سياسية لإقامة دولة يهودية فى فلسطين) إن مفهوم الشالوتزيت يعنى فى حقيقة الأمر ما يفوق بكثير مجرد استصلاح الأرض وإقامة مستعمرات منظمة ، لقد كان يعنى بالنسبة لهم تجديد الذات وإزالة آثار الجراح التى خلفتها أجيال الاضطهاد فى أوربا ، والحياة الزائفة التى فرضت على اليهود هناك .

واليوم ،لم يعد مفهوم « الرواد » ذلك المفهوم الغامض المبهم ، ولكنه خلف شعوراً بالفخر من الفكرة ذاتها ، والقيم التى تولدت عنها وصاحبتها ومنها عدم

التقيد بالرسميات ، والمساواة ، وبعض الخشونة والصلابة التى تؤثر على جوانب مختلفة من الحياة الإسرائيلية ، إنها تؤثر ، من الناحية الظاهرية مثلا ، على مظهر الناس من ناحية الملبس . فقد ظل ارتداء رباط العنق — حتى بعد مضى وقت غير قصير على إنشاء إسرائيل — منظراً غير مستحب مهما كانت المناسبة ورغم ارتفاع مستوى الملابس حالياً فغالباً ما تظهر صور الكثيرين من ساسة إسرائيل وبخاصة قدامى الاشتراكيين الذين شكلوا أساس الوزارات المتعاقبة ، وهم يرتدون القمصان المفتوحة حتى أثناء اجتماعاتهم مع ساسة الدول الأخرى . فلم يظهر دافيد بن جوريون مثلا ، وهو أشهر شخصية إسرائيلية ، وتولى رياسة الوزارة لمدة أحد عشر عاماً ، فى أية صورة وهو يرتدى رباط عنق حتى فى المناسبات الرسمية . وقد تمخض عن عقيدة « الريادة » واللون الاشتراكى الذى أكسبه إياها المهاجرون الأوائل والذين جاء معظمهم فى واقع الأمر من روسيا أو بولندا ، نتيجة هامة أخرى عبر عنها مبدأ المساواة بين الجنسين الذى تضمنته وثيقة إعلان الاستقلال فى عام ١٩٤٨ ، وهو يعنى ، بين أشياء أخرى ، حصول المرأة على أجور مساوية لأجور الرجل ، ورغم أن كثيراً من البلدان الأوربية قد حققت هذا أو كادت دون ضجة مماثلة ، فإن اعتبار حقوق المرأة من المبادئ الأساسية للدولة أمر له أعمق الأثر على الحياة الاجتماعية فى إسرائيل ، فجميع النساء ، متزوجات أو غير متزوجات ، لا بد وأن ينزلن إلى مجال العمل ، ويسمح للمرأة التى لديها أطفال بالعمل نصف الوقت فقط طالما كانوا صغار السن ، ولكنها غالباً ما تعود إلى نظام يوم العمل الكامل عندما يلتحق أطفالها بالمدارس . ولا يبدو غريباً أو يعتبر مهيناً بأى شكل من الأشكال إذا عملت الزوجة لمساعدة زوجها على استكمال دراسته . وهكذا أصبحت النساء بالضرورة والعقيدة ، قوة اقتصادية ، الأمر الذى يحتم معاملتهن سواء فى المكتب أو فى المصنع أو فى المنزل على قدم المساواة مع الرجل .

وهذا يجعل العلاقات بين الجنسين متزنة ومستقرة فى جميع الأعمار وربما كان من نتيجة هذا انتشار الزواج المبكر بين المراهقين ، ويسهم هذا بدوره فى

تعميق الشعور بالمساواة ، إذ دائماً ما تضطر الزوجات الشابات إلى العمل .
إن المساواة فى معاملة المرأة الإسرائيلية وصلت إلى مرحلة ربما يعتبرها كثير من الناس فى إنجلترا متطرفة ، إذ تقوم النساء بتأدية الخدمة العسكرية فى سن الثانية عشرة ، فيقضين ثمانية عشر شهراً فى الجيش فى حين ، يقضى الرجال عامين وثلاثة شهور . وفى خلال الثمانية عشر شهراً تمر الفتيات والرجال على السواء بفترة شاقة للغاية من التدريبات البدنية علاوة على بعض البرامج التعليمية ، والأعمال المكتبية . ولشعور « الريادة » نفع كبير فى هذا المجال . وتحاول قلة من العائلات ، إرسال أبنائها إلى الخارج بشتى الطرق عندما يبلغون أواخر سن المراهقة حتى يفلتوا بأى ثمن ممكن من قبضة الجيش ، ولكن غالبية العائلات تقبل التجنيد بتفاؤل إسرائيلى حقيقى ، ليس على أنه شر لابد منه يفرضه موقف الأمن وحقيقة عدم وجود تسوية سلمية بين إسرائيل والدول العربية (فالطرفان رسميا فى حالة حرب) ولكن كتجربة مفيدة وإيجابية . وحيث إن التجنيد اجبارى لكل فرد فلا يشعر أحد بأنه مضيعة للوقت .

ويعتبر الجيش من وجهة النظر التعليمية والاجتماعية وكذلك العسكرية عاملا حاسماً فى الحياة الإسرائيلية ، إذ يتحتم على كل فرد سواء أكان إسرائيلى المولد أو حديث الهجرة إليها أن ينخرط فى سلك الجيش . فإذا وصل شخص من بلد آخر وهو فى سن التجنيد وكان لا يتحدث العبرية فإنه يقضى نصف مدة التجنيد فى دراسة واسعة للغة العبرية وفى تلقى محاضرات تساعده على الاندماج فى البيئة الجديدة التى تحيط به والتأقلم معها . ويرسل الجيش فرقه التعليمية إلى قرى التهجير الحديثة لتقديم المناهج نفسها إلى المهاجرين الجدد الذين لا تنطبق عليهم شروط التجنيد ، إما لصغر سنهم أو كبرها . وقد أصبح للجيش ، كقوة خالقة لإسرائيل ، قيمة فائقة ، ويكفى المرء أن يلقى نظرة قصيرة على تاريخ الهجرة إلى إسرائيل ليتبين أنه لا غنى مطلقاً عن مثل هذه القوة .

ويوضح الرسم نسبة السكان الذين ولدوا فى إسرائيل ، مقارنة بمن ولدوا فى أنحاء متفرقة من العالم . وكما سنتبين فى الفصل التالى فقد بدأت الهجرة إلى

مكان الميلاد	النسبة
إسرائيل	٣٨٫٥ ٪
أوروبا أو الولايات المتحدة	٣٣٫٥ ٪
أفريقيا وخاصة شمال القارة	١٣٫٣ ٪
آسيا وخاصة الشرق الأوسط	١٤٫٧ ٪

إسرائيل فى بداية القرن الحالى بمعدل ملحوظ ، وتعاقبت موجاتها منذ ذلك الحين . وكانت كل موجة أو « الهجرة إلى إسرائيل» كما يطلق عليها بالعبرية نتيجة — فى أغلب الأحوال — لبعض الاضطرابات السياسية فى أوربا أو فى أى مكان آخر، الأمر الذى ساعد أو أرغم اليهود على ترك مواطنهم الأصلية والهجرة إلى فلسطين أو إلى إسرائيل كما سميت فيما بعد . ويسمى أولاد هؤلاء المهاجرين الذين ولدوا فى إسرائيل « الصابرا » نسبة إلى نبات الصبير أو التين الشوكى المحلى، وذلك لأن الخصائل الفظة الخشنة التى ينشأون عليها (ربما كاحتجاج غير مقصود على صفات آبائهم المهاجرين وخصائلهم الأكثر رقة) تشبه الغطاء الشوكى الذى يحيط بثمرة التين الشوكى الحلوة . ويشكل « الصابرا » أقل من نصف السكان ، ولكن ستزداد نسبتهم مع هبوط معدل الهجرة إلى إسرائيل. ومنذ عام ١٩٦٠ هبط متوسط معدل الهجرة فأصبح ٦٠٫٠٠٠ مهاجر سنوياً ، مما يعد أقل بكثير من معدلات الهجرة فى السنوات الأولى التى تلت إنشاء إسرائيل عندما كان عدد المهاجرين يبلغ ضعف أو ثلاثة أضعاف هذا العدد . ولكن ربما يرتفع معدل الهجرة فى أية لحظة ، فهناك على سبيل المثال ثلاثة ملايين يهودى فى روسيا ، ومن المعتقد أن كثيرين منهم ينتظرون أية فرصة للذهاب إلى إسرائيل . ماذا يحدث لو منحهم الروس تأشيرات الخروج ؟ إنه سؤال يردده الأسرائيليون مازحين . ولكن الأمر فى الواقع يبعد كل البعد عن الهزل ، ليس بالضرورة فى حالة اليهود الروس ، ولكن فى حالة مئات الجماعات اليهودية فى جميع أنحاء العالم . إن إسرائيل لا تستطيع أن تقول لهم « انتظروا . . . فليس لدينا متسع لكم هذا العام » فمن حق كل يهودى دخول إسرائيل طبقاً لقانون

العودة الذى وافق عليه الكنيست فى شهر مايو عام ١٩٥٠ . وقد خرج هذا المبدأ أساساً عن دوافع مثالية ، ولكن لم يكن قادة الدولة الناشئة بحاجة إلى جهد كبير ليدركوا أن السبيل الوحيد لبقاء إسرائيل فى منطقة تحيط بها قوى معادية هو العمل من أجل زيادة العدد الضئيل من سكانها اليهود بسرعة . وهكذا فإن عبارة « تجميع المنفيين» التى استخدمت للتعبير عن فكرة تهجير اليهود من كافة أنحاء العالم كانت ، من ناحية ، عملية إنقاذ ، اتخذت أحياناً طابعاً كما حدث عام ١٩٥١ عندما قامت إسرائيل بإعداد الترتيبات اللازمة لنقل يهود العراق واليمن بطريق الجو ، وكانت من الناحية الأخرى ، بمثابة عملية نقل دم إلى إسرائيل نفسها .

وبلغ عدد المهاجرين إلى إسرائيل منذ إنشائها حتى الآن مليون شخص ، وقد يتعذر فى هذا المجال وصف هؤلاء المهاجرين أو هذه الأنواع المختلفة من الناس التى تشكل المجتمع الإسرائيلى ، فقد جاء اليهود من أكثر من سبعين بلداً مختلفاً واحتفظ معظمهم ببعض آثار واضحة تنم عن مواطنهم الأصلية .. ويمكن عموماً تقسيمهم إلى مجموعتين أولاهما من أصل أوربى والأخرى من أصل شرقى . ويشكل اليهود الشرقيون غالبية السكان ، ولهذا فإن سمرة الوجوه هى الانطباع العام الذى يخرج به المرء عند وصوله إلى إسرائيل وعندما تزداد الانطباعات وضوحاً يمكن للمرء التميز بين الجماعات المختلفة فهناك جيل « الأوربيين القدامى » بلهجاتهم الروسية أو الألمانية ونشاطهم وهدوئهم الذى يميزهم عن غيرهم ويجعل منهم « وجوداً » مستقلا بذاته ، كذلك يوجد اليهود الذين جاءوا من شمال أفريقيا ويتميزون بشعرهم الأسود المجعد ، ولون بشرتهم السمراء التى لفحتها الشمس ، وتأتى بعد ذلك قلة عربية فى مظهرها ، ومعظم أفرادها من اليمن ، ممن يطلقون سوالفهم كعلامة من علامات التدين ، وما زالت نساؤهم يرتدين الأثواب التقليدية المطرزة . تلك بعض الأنواع المختلفة من الناس التى يراها المرء فى إسرائيل . وبالإضافة إلى مجموعات المهاجرين توجد مجموعتان مسقط رأسهما إسرائيل ذاتها ، وتضفى كل منهما لونها الخاص

على المنظر العام . أولاهما الصابرا وهم الجيل الثانى فى إسرائيل الذى ولد ونشأ بها ، ويبدو فى الظاهر مجموعة متجانسة فى اللغة التى يتحدثها ، والعامية التى يستخدمها والصفات التى يتسم بها ، ولهذا ربما يستطيع المرء عند الوهلة الأولى أن يتعرف على أصلهم من لون بشرتهم وإن كان يصعب أحياناً حتى معرفة هذا . والمجموعة الثانية تتألف من العرب الذين ما زالوا يعيشون فى إسرائيل والذين يرتدون ملابسهم التقليدية التى تعيد إلى الأذهان عصور التوراه .

وبالرغم من السياسة الرسمية التى تهدف إلى دمج هذه المحتويات حيث لم يكن من الممكن التحكم فى معدل الهجرة أو توقيته ، فقد استقرت بعض هذه الجماعات — كل على حدة — أحياناً فى مكان واحد وبخاصة فى المناطق الريفية . أما فى المدن فكان الاندماج كاملا ، فإذا سرت فى أحد الشوارع الرئيسية فى إحدى المدن فلايسعك إلا أن تدرك حقيقة كون إسرائيل بوتقة ألقيت فيها عناصر متعددة الأنواع . من ذا الذى يستطيع أن يعرف طعم هذا الخليط فى نهاية الأمر ؟

إن السطح يكشف عن عالم بهيج يفيض حيوية ونشاطاً ومن السهل عندما تنظر إليه أن تتجاهل الضغوط التى تكمن فيه ، وتنسى أن كثيراً من هؤلاء الناس الذين يبدون الآن سعداء وقد تأقلموا مع حياتهم الجديدة . كانوا يجهلون كل شىء عن هذا البلد لدى وصولهم إليه ، فبعضهم لم يكن ينطق بكلمة عبرية واحدة ، والبعض الآخر ربما لم يكن يريد حتى أن يأتى . وفريق آخر كان يتحرق شوقاً إلى المجىء وينشد الكمال ، فلما لم يجده كانت خيبة أمله كبيرة . وكان المطلوب هو إذابة كل هؤلاء اقتصادياً واجتماعياً ونفسياً فى النظام الإسرائيلى .

ويشكل التكامل الاقتصادى ، كما سنرى فيما بعد ، أكثر الأعباء إلحاحاً على عاتق الدولة ، ولكن ربما يشكل التكامل النفسى والاجتماعى أكبر المشكلات على المدى البعيد . فرغم أن معظم الإسرائيليين يكرمون الغريب إلى أقصى درجة

فإنهم ليسوا بنفس المودة فيما بينهم . فقد يجمع بينهم حرارتهم الطبيعية ، وإحساسهم بتاريخهم المشترك ويهوديتهم، ولكن هناك عاملين قويين يعملان على الإخلال بتجانس البلد . أولهما موضوع الدين ، فإسرائيل دولة علمانية ، ولكن الآمال السياسية والدينية اختلطت وتشابكت منذ البداية بطريقة معقدة ، لأن الصهيونية كانت عقيدة دينية قبل أن تتحول إلى حركة سياسية فى نهاية القرن الماضى بكثير ، ولأن السبب الوحيد الذى دفع اليهود إلى إقامة دولة فى فلسطين وليس فى أى مكان آخر ، هو ارتباطهم دينياً بهذه المنطقة . ويوجد بالكنيست فى الوقت الحالى ثلاثة أحزاب دينية من بين أحد عشر حزباً سياسياً ، وقد فازت فى الانتخابات الأخيرة بأربعة عشر فى المائة من الأصوات ، وهكذا يتضح أن مركز الجاذبية السياسية يقع — دون شك — فى جانب غير الدينيين . ومع هذا فللأحزاب الدينية تأثير متفاوت فى الشئون الإسرائيلية وذلك بسبب تأثيرهم على اليهود فى الخارج ولأسباب أخرى غير ذلك ، فتعالج كل الأمور المتعلقة بالقوانين الشخصية كالزواج والطلاق مثلا طبقاً للشريعة اليهودية ، فالإسرائيلى الذى يرغب فى الزواج من امرأة غير يهودية يجب عليه أن يجعلها تعتنق اليهودية وإلا فلا مفر من إتمام الزواج خارج إسرائيل، وينطبق الشىء نفسه على الإسرائيلية بالنسبة لزواجها من رجل غير يهودى . وهناك حركة تهدف إلى وضع نهاية لهذا ، ولكن لا يحتمل تطبيق نظام الزواج المدنى فى المستقبل القريب، لأنه لا يتأثر بقانون الزواج الحالى سوى فئة ضيئلة جداً . ولنتبين أثر القوانين الدينية على الحياة اليومية نسوق مثالا آخر وهو تحريم استخدام وسائل النقل العام يوم السبت، ومع هذا تقوم بعض سيارات الأجرة بالعمل خلسة يوم السبت فى داخل المدن وفيما بينها . وقد ظل عمدة حيفا الاشتراكى يقاوم الضغط ويسمح بتشغيل سيارات الأوتوبيس فى أيام السبت . ولكن غالبية الناس من غير الدينيين ، تشعر بالضيق من استمرارها فى معارضة التقاليد الدينية . إننى أشير أحياناً إلى « الدينيين » وأحياناً أخرى إلى «غير الدينيين» ولكن المواقف فى حقيقة الأمر لم تتضح بعد تماماً بالنسبة لهذا الموضوع . فهناك

كافة أنواع المعتقدات الدينية التى تشبه فى تداخلها وتشابكها مجموعة ألوان الطيف بحيث يصعب تحديد من هو « الدينى » ومن هو « التقليدى » (هناك بين المسيحيين من هو تقليدى فى نظرته إلى عيد الميلاد (الكريسماس) دون أن يخالجه — بالضرورة — أى شعور دينى تجاهه) .

وليس من المحتمل أن يتحاشى المواطن الإسرائيلى التقليدى المعتدل صحبة غيره من غير المؤمنين ، أو من يفوقونه فى نزعته التقليدية بقليل ، بل إنه ربما يقيم علاقات صداقة ومودة مع أناس أشد تديناً منه بكثير إذا كانت بينه وبينهم علاقات اجتماعية كعلاقة الجوار ، أو الانتماء إلى القرية نفسها فى أوربا ولكن إذا لم تكن هناك صلات اجتماعية ، أو كانت الهوة بين معتقدات الطرفين أوسع وأعمق فلا يحاول أى منهما التقرب من الآخر .

وربما يقال إن الشيء نفسه ينطبق على إنجلترا حيث يميل الاتقياء ممن يواظبون على الذهاب إلى الكنيسة إلى عدم الاختلاط بمن لا يذهبون إليها .

وهذا صحيح بصفة عامة ، ولكن الفرق بين المسيحية واليهودية فى هذا المجال هو أن اليهودية تؤثر على الجانب الخارجى من الحياة (كالمأكل والملبس) كما تؤثر على الجانب الروحى منها ، الأمر الذى يجعل الاختلافات فى الرأى واضحة غالباً أمام العيان ولا يمكن نسيانها بسهولة وينطبق هذا بصفة خاصة على المتطرفين فى تدينهم أكثر من غيرهم ، تلك القلة الصغيرة من المتطرفين الذين يعيشون أساساً فى مستعمرات فى المدن القديمة مثل القدس وصفد وطبرية والذين تميزهم ملابسهم القديمة الرثة عن غيرهم أينما ذهبوا . ويميل الجيل الجديد كما يحدث فى كل مكان آخر بالطبع إلى تحدى قيم آبائهم ، ولكنهم رغم رفضهم للجانب الروحى لليهودية فإن إيمانهم بالله وثيق الارتباط بشعورهم بالكبرياء القومى ، وبمجرى حياتهم اليومية ، بحيث أصبح من النادر التشكيك فيه ، اللهم فيما بين المثقفين والفنانين الذين يحارب كثير منهم المحرمات التقليدية بحماس شديد .

وربما اعتقد المرء أن التعليم المدرسى قد يساعد على إزالة الحواجز بين

« الدينيين وغير الدينيين » تماماً كما يساعد الجيش فى استيعاب المهاجرين ولكن على العكس من هذا ، يميل نظام التعليم إلى دعم هذه الفواصل بدلا من أضعافها .

وقد وافق زعماء اليهود ، بسبب ما صاحب موضوع التعليم من مشاعر قوية عندما أقامت الجالية اليهودية فى فلسطين قبل إنشاء دولة إسرائيل بمدة طويلة مدارسها الخاصة — وافقوا على تقسيم المدارس إلى ثلاث مجموعات هى المدارس الدينية ، ومدارس الوسط ، ومدارس اليسار (وتعكس المجموعتان الأخيرتان اتجاهات سياسية) وقد استمرت الحكومة فى اتباع هذا التقسيم بعد عام ١٩٤٨ فرغم توحيد التعليم فيما بعد فى ظل نظام تشرف عليه الدولة فقد احتفظت الأنواع المختلفة من المدارس بالاتجاهات نفسها وهكذا يستطيع الآباء ، حتى فى ظل نظام التعليم الرسمى الذى يضم ٩٠٪ من المدارس اختيار نوع المدرسة لأبنائهم ولهذا لا يجد الأطفال الذين ينتمون إلى اتجاهات دينية مختلفة فرصة كبيرة لتوسيع مداركهم عن طريق اختلاط بعضهم بالبعض الآخر فى المدارس . وبطريقة مماثلة فإن هذه الفواصل تظل قائمة — وبشكل أكثر وضوحاً — فى فترة هامة أخرى من حياة الطفل فى إسرائيل ونقصد بهذه حركة الشباب .

ولكى نفهم المغزى الكامل لحركات الشباب فى إسرائيل اليوم يتحتم علينا أن ننظر إليها من خلال الصورة الخلفية للرعب الذى عاشه معظم اليهود فى ثلاثينات وأربعينات هذا القرن فى أوربا . فقد كان لا بد من التركيز على الشباب فى فلسطين بعد أن تعرض له جيل آبائهم .

فبينما كان على المدرسة أن توفر للأطفال مستوى من التعليم كان على حركة الشباب أن تهيئ لهم وسائل التسلية — من رياضة ورحلات ومرح — التى حرم منها آباؤهم ، وقبل هذا كله كان عليها أن تزودهم بالتثقيف السياسى السليم . ولكن كان هناك بالطبع كثير من الأفكار المختلفة حول ماهية التثقيف السليم ، وهكذا تعددت الحركات وكونت كل منها نوعاً من النواة لحزب سياسى ، وغرست بذلك شعوراً بالوعى السياسى بين أعضائها فى سن مبكرة

جداً . وفى وقتنا هذا فإنه على الرغم من أن هذه الحركات لم تعد تسيطر على حياة الأطفال كسابق عهدها إلا أن صبياً عمره خمسة عشر عاماً ما زال يخصص ثلاث أمسيات كل أسبوع والجزء الأكبر من أحد أيام عطلة الأسبوع لهذه الحركة . ويبلغ عدد حركات الشباب فى الوقت الحالى إحدى عشرة حركة تضم نصف مليون عضو ، وبفضل هذه الحركات يشب الجيل الجديد فى إسرائيل ولديه شعور سياسى قوى . فإذا أضفنا إلى هذا أن الإسرائيليين يحبون الجدل والمناقشة فإنه لا يسع أى شخص أن يقيم طويلا فى هذا البلد دون أن يتخذ لنفسه موقفاً سياسياً من نوع أو آخر ، وبالطبع يوجد أناس من غير المهتمين بالسياسة ولكنهم حتى وإن لم يفكروا فى هذه الأمور على انفراد فإنهم يميلون إلى اتخاذ مواقف مبدئية فى المناقشات . ولنأخذ على سبيل المثال ما يجرى فى أحد الشقق فى تل أبيب فى إحدى أمسيات الجمعة أو السبت ، إذ يأتى الأصدقاء ويجلس الجميع فى الشرفة ويفترش بعضهم الأرض إذا لم تتوفر مقاعد كافية ، وعلى أية حال فإن الأرض المغطاة بالبلاط تكون باردة دائماً ، وتزحف بعض الحشرات الصغيرة على الحائط فى اتجاه المصباح الذى يعلو باب الشرفة فى حين يصل إلى الأسماع طنين الزيزان فى الحديقة أسفل المنزل — ويجلس الضيوف وبأيديهم المشروبات المثلجة يستمتعون بنسيم المساء الذى يحمل معه رائحة البحر ، وبعد أن يتم التعارف ويتصافح الجميع يبدأ الحديث ، يتخلله كثير من الضحك ، وفجأة يسود خلاف حاد بسبب ملاحظة عابرة — ويمكن أن يكون حديثهم عن أى شىء مثل الانتخابات البلدية ، أو سياسة أمريكا الخارجية — بل ربما لا تختلف حدة لهجة الحديث حتى إذا كان موضوعه سهولة قيادة السيارات ، بسرعة فى الطريق إلى حيفا ، ويتراءى مع تقدم الجدل والمناقشة أن عرى الصداقة التى تربط بين هؤلاء الناس قد انفصمت إلى الأبد وأن الخصام سيحل بينهم . وتعتبر هذه الحدة أسلوب إسرائيل وهى ما كانت لتثير أية مشكلات لو أنها ظلت محصورة فى نطاق حديث الشرفات ، ولكنها تتعدى هذا إلى ما هو أعمق وأشمل من هذا بكثير ، ولا ضير من مثل هذه

المواقف الصلبة فى بلد لا تواجهه مشكلات ضخمة مثل تلك التى تواجه إسرائيل ، ولكن يشجع على عدم قبول الحلول الوسطى فى المقام الأول إدراك الإسرائيليين لهذه المشكلات ومعرفتهم بأن الكثير يتوقف على حلها ، وهناك مشكلة أخرى لم نتعرض لها بعد، ولكنها تترك بصماتها على سطح الحياة الإسرائيلية أكثر من غيرها حيث تؤثر على المواقف الاجتماعية فى كل المستويات وفى كل جزء من البلاد، وتلك هى المشكلة التى تتعلق بالموطن الأصلى ، أو بمعنى آخر أى نوع من المهاجرين أنت ومن أين ومتى أتيت؟ ومن المحتمل أن تتغير طبيعة هذه المشكلة مع تغير التركيب السكانى فى إسرائيل، ولكنها ستظل دون شك مصدراً للقلق لمدة طويلة. وكما هى الحال فى أمريكا ، حيث اكتسبت عائلات نيوإنجلاند العريقة نوعاً من الأفضلية والأسبقية نظراً لأنهم من أوائل المستوطنين ، نجد أن بعض المهاجرين فى إسرائيل يرون أنفسهم أفضل من غيرهم ، ولكن المسألة لاترتبط بأسبقية الهجرة إلى إسرائيل والوصول إليها، ولإيضاح هذه النقطة جيداً يجب أن نعود قليلا إلى الوراء .

كان اليهود فى أوربا ، قبيل نهاية القرن الخامس عشر عندما طرد اليهود من أسبانيا حيث — كانوا يعيشون — بأعداد كثيرة ، ينقسمون إلى مجموعتين الأولى « السفرديين » (وهى مشتقة من كلمة « سفرد » العبرية وتعنى « أسبانيا » الذين عاشوا فى جنوب أوربا أو شمال أفريقيا . والثانية « الاشكينازيين » (وهى مشتقة من كلمة أشكناز العبرية وتعنى ألمانيا) الذين اتجهوا تدريجياً ناحية الشرق حيث عاشوا فى وسط وشرق أوربا . وتكونت لكل مجموعة خصائصها المميزة بتأثير الظروف الجديدة المحيطة بها . وكان من أوضح الاختلافات بينهما التباين فى اللغة، حيث فضلت المجموعة الأولى استخدام الأسبانية وفضلت المجموعة الثانية استخدام اللغة اليدية [١] فى حياتها اليومية عن العبرية التى اقتصر استخدامها على الطقوس الدينية . وشيئاً فشيئاً أصبح القول بأن

---

(١) اليدية لهجة من لهجات اللغة الألمانية تكثر فيها الكلمات العبرية والسلافية وينطق بها اليهود فى الاتحاد السوفييتى وبلدان أوربا الوسطى وتكتب بأحرف عبرية .

اليهود السفرديين أفضل من غيرهم لانتمائهم إلى عائلات أكثر ع اقة أمراً مقبولا .
وكان هذا هو الموقف عندما فتحت أبواب الهجرة إلى فلسطين على مصراعيها .

ولكن سرعان ما تغيرت الأمور فجأة عندما بدأت أفواج الهجرة الضخمة من أوربا الشرقية، فزاد عدد «الأشكيناز» على عدد السفرديين بل وأصبحوا يتقلدون المناصب والأعمال الهامة بين الجاليات اليهودية . وهكذا فإن معظم الإسرائيليين ممن حققوا شهرة خارج بلادهم كانوا من الإشكيناز أو من أصل أشكينازى ومن بينهم حاييم وايزمان أول رئيس لدولة إسرائيل، ودافيد بن جوريون، والفيلسوف مارتن بوبر ، وعالم الآثار بيجال يادين الذى رأس بعثة التنقيب عن قلعة ماسادا القديمة . وبعد إنشاء دولة إسرائيل تدفق سيل اليهود «السفرديين بأعداد ضخمة من مراكش ، والجزائر ، وإيران ، والعراق ، والدول العربية المجاورة . ورغم أن عدد السفرديين حالياً يفوق عدد الإسرائيليين ممن ينتمون إلى أصول أخرى ، فإنهم باستثناء قلة منهم لا يستطيعون منافسة الآخرين فى المهارة والتعليم لأنهم جاءوا من بلاد متخلفة ، فاذا أضفنا إلى هذا قلة الفرص المتاحة ، بعد أن تم شغل المناصب الكبرى، فإننا نجد أنفسنا أمام مجتمع يقبع على قمته الأوربيون ، يليهم بقية الإسرائيليين (أو إسرائيل الثانية كما يسميهم الكثيرون فى إسرائيل الذين يشعرون بهذه الحقيقة ويأسفون لها) .

وهناك بطبيعة الحال استثناءات من هذه القاعدة ، فالتقسيم الاجتماعى الذى ينتج عنها ليس عاما ، ولا نلاحظ اية تفرقة ولكنها على أية حال تترك مشاعر مريرة . فرغم اختلاط الشباب من الجيل الجديد من جميع الأجناس فى المدارس وفى الجيش فربما لا ترضى فتاة من أصل أوربى مثلا أن تتخذ من شاب مراكشى الأصل صديقاً لها، حقيقة أنهما يتحدثان اللغة (العبرية) نفسها ولكنهما يختلفان فى كثير من الأمور الأخرى ، وحتى إذا استطاعا التغلب على الحواجز الثقافية والاجتماعية بسبب وجود بون شاسع بين عمل آبائهما ، فسيشعران بالتوتر كلما التقيا، وقد تمارس عائلتاهما ضغطاً شديداً عليهما لمنعهما من الالتقاء كثيراً . ولم نصف حتى الآن سوى سكان إسرائيل من اليهود حيث

إنهم يشكلون الأغلبية ، ويليهم من ناحية الحجم العرب ، ولكن هناك أقليات أخرى ، حيث اجتذبت الأرض المقدسة خلال ألفى عام المستوطنين من مختلف الأجناس والعقائد . وما زالت آثار مملكة الصليبيين مثلا من كنائس تنتشر فى طول البلاد وعرضها . ويوجد فى إسرائيل اليوم ٥٠٫٠٠٠ مسيحى بعضهم من العرب وبعضهم الآخر من الأجانب من طوائف ومذاهب مختلفة حيث أقاموا المعابد والكنائس والأديرة والتكايا، فى كل الأماكن المقدسة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر منطقة بحر الجليل والناصرة والقدس . ويضفى وجود تلك الأقليات على بعض الأماكن طابعاً أوربياً بأديرتها وأجراسها وأشجارها . ويوجد علاوة على المسيحيين ما يقرب من ٢٥٫٠٠٠ من الدروز وهم من أتباع ديانة ظهرت فى القرن الحادى عشر ويعيشون فى قرى تنتشر فى منطقة جبل كارميل، وكما سبق أن أشرنا يشكل العرب أكبر مجموعة بين هذه الأقليات إذ يوجد منهم قرابة ٢٠٠٫٠٠٠ شخص أى ما يعادل عشر سكان إسرائيل تقريباً . وسنتعرض لتاريخ هذه الأقلية وأهميتها السياسية فى جزء لاحق من الكتاب . أما هنا فسأحاول أن أعطى فكرة موجزة عن الدور الذى يقوم به العرب فى حياة المجتمع ككل .

كان عدد السكان العرب فى هذا الجزء من فلسطين ، الذى أصبح الآن إسرائيل ، أكبر بكثير أيام الانتداب البريطانى مما هو عليه الآن . ولكن عندما نشبت الحرب بين العرب وإسرائيل عام ١٩٤٨ ، وخلال الاضطرابات التى سبقتها ، فر كثير من عرب فلسطين من المناطق التى كان يسيطر عليها الإسرائيليون إلى مناطق أخرى أو إلى شرق الأردن وبعض الدول العربية الأخرى وهؤلاء هم اللاجئون العرب الذين زاد عددهم طبيعياً ليصبح مليون نسمة خلال جيل واحد أو أقل ، أما المائتا ألف عربى الموجودون فى إسرائيل اليوم فهم ممن فضلوا البقاء ولم يفروا ، وهم فى معظمهم من صغار الفلاحين أو الحرفيين ويعيشون فى الناصرة أو ما حولها ، وعلى طول الحدود الشرقية لإسرائيل .

ومنذ إنشاء دولة إسرائيل فرضت القيود على حرية حركة العرب المقيمين

بها لأسباب تتعلق بالأمن (لأن إسرائيل ظلت طوال العشرين عاماً الماضية فى حالة حرب رسمية مع الدول العربية المجاورة لها) . ويتمتع هؤلاء العرب ، إذا ما قورنوا بالعرب فى دول عديدة أخرى ، بمستوى مرتفع من المعيشة حيث يستفيدون من مختلف أنواع الخدمات التى تقدمها الدولة . ويوجد بين أعضاء الكنيست سبعة من العرب لهم الحق فى تأييد أى حزب يرونه (وإن كان حزب الماباى — فى واقع الأمر — وهو الحزب المسيطر هو الذى يضمن تأييدهم بصفة عامة لما يمارسه عليهم من ضغوط) ، وهكذا فإنهم يشاركون رسميا فى النظام الديمقراطى للبلاد . ولكنهم يشعرون فى الوقت نفسه بشىء من التفرقة حيث تخضع المناطق التى يعيشون فيها لإشراف دقيق من جانب البوليس ، كما أن تحركاتهم داخل البلاد مقيدة ، وفى بعض الأحوال فإن التفرقة دون شك حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها . ونسبة البطالة بين العرب عالية (ما يقرب من ٧ ٪ من مجموع العمالة العربية) لأنه كلما اضطر أحد المصانع لتخفيض عدد عماله فإن أول من يستغنى عنهم هم العمال العرب . وعلاوة على هذا فإن الحواجز التى تفصل بين مهاجر أوروبى وآخر من شمال أفريقيا مثلا تظهر هنا أيضاً ، بالإضافة إلى أن الجنس والدين يخلقان حاجزاً آخر ، إذ أن التزاوج بين المجموعتين غير ممكن إلا إذا اعتنق العربى الديانة اليهودية . ويناقش الإسرائيليون هذه المسائل باستفاضة ، إذ أن المشكلة العربية ، سواء فى الداخل أم فى الخارج ، من أكثر المشكلات إلحاحاً فى إسرائيل اليوم ، ومن العسير تجاهلها وحتى شهر يونيه عام ١٩٦٧ كان المرء يواجه — أينما ذهب فى إتجاه الحدود — لافتة تقول « خطر . . احترس » وخلفها الأسلاك الشائكة ووراءها الألغام لتذكره بأن إسرائيل دولة فى حالة حصار من جميع الجوانب فيما عدا الجزء الساحلى منها . أما الآن ومنذ انتصار إسرائيل الساحق على العرب فى حرب يونيه عام ١٩٦٧ فقد اتسعت حدود إسرائيل فى كل اتجاه . ولكن حالة الحصار سوف تستمر حتى يتم الوصول إلى تسوية سلمية ، وقد استطاع الإسرائيليون فى الماضى أن يرجئوا التفكير فى الخطر الذى يهددهم كل يوم ، وعندما كان يفرض نفسه عليهم كانوا ينظرون إليه كنوع من التحدى . ولا يستطيع الناس

فى الأحوال العادية أن يشغلوا تفكيرهم طوال الوقت بمأساة المأزق السياسى فى هذه المنطقة من العالم، هذا المأزق الذى نشأ عن الصدام بين حركات القومية العربية واليهودية .

ويمكن القول بأن المثل الأعلى الصهيونى قد تحقق جزئياً فقط ، إذ لم يكن حلم زعماء الصهيونية الأوائل إقامة دولة تظل فى حالة عداء مزمن مع جيرانها ، لتخوض حرباً شاملة ضدهم كل عشر سنوات ، وهذا يؤثر على إسرائيل مادياً ونفسياً كذلك . ولكن كما سنرى فيما بعد فإن تكوين دولة حقيقية ، مهما كانت الظروف المحيطة بوجودها ، اعتبر عندما تحقق شبه معجزة . ولقد أثلج الإحساس بإنجاز هذه العملية ، رغم ما شابه من عيوب ونواقص، صدور من اشتركوا فيه .

الفصل الثانى

الماضى

إن دولة إسرائيل من أحدث دول العالم وأقدمها فى الوقت نفسه . فقد ظهرت إلى الوجود رسمياً عام ١٩٤٨ ، ولكنها استقرت فى أذهان الناس كفكرة لعدة قرون قبل هذا التاريخ . ويمكن اعتبار عدة لحظات فى التاريخ كنقطة بداية لهذه الفكرة ، ويحيط بأولى هذه اللحظات ضباب الماضى بحيث يصعب تحديد تاريخ لها ، فهى تنتمى إلى الأسطورة أكثر من انتمائها إلى التاريخ ، ولكن بغض النظر عما حدث تماماً فقد كانت لها أهمية كبرى بالنسبة للمستقبل، هذه اللحظة هى لحظة قدوم سيدنا إبراهيم من أرض الفرات إلى فلسطين . وهناك وعده الله وسلالته ، طبقاً للتوراة، بكل أرض كنعان لتظل لهم أبد الآبدين ، وتلك هى المنطقة التى يحدها من الشرق وادى الأردن والتى تقع بين غزة فى الجنوب وتمتد إلى نقطة تقع على بعد ٣٥٠ ميلا إلى الشمال منها . وأصبح هذ الوعد حجر الزاوية فى الديانة اليهودية ، وهكذا ارتبط الشعب والأرض بمصير مشترك واحد ، فإذا افترقا كان مصيرهما الضعف والوهن . وقد دارت مناقشات لا نهاية لها حول حق اليهود فى فلسطين ، وأجريت مقارنات مع الفايكنج (غزاة الشمال) : هل من حق الدول الإسكندنافية المطالبة بنصف إنجلترا لأن أسلافهم عاشوا هناك ، بالطبع فإن المنطق يدعو إلى القول بأنه لا حق لليهود فى فلسطين . ولكننا نتناول هنا عقيدة متشابكة ، وليست العقائد منطقية فى أغلب الأحوال . فقد أتيح لهذه العقيدة آلاف السنين لتستقر فى ضمير الشعب اليهودى . وعندما حل القرن العشرون كان اليهود ، حتى من كان بينهم يرفض اليهودية عمداً كديانة ، يشعرون بنوع من العلاقة أو الارتباط الخاص بفلسطين .

وجاءت اللحظة الأساسية التالية فى تاريخ دولة إسرائيل القادمة بعد مرور ما يقرب من أربعة آلاف سنة، وذلك فى عام ١٨٩٧ عندما انعقد أول مؤتمر صهيونى فى مدينة بازل برياسة « تيودور هرتزل » الصحفى اليهودى الذى كان يعيش فى فيينا . وأعلن هذا المؤتمر الذى ضم ١٩٧ يهودياً من ١٥ دولة مختلفة — وهو أول اجتماع من نوعه فى التاريخ — أعلن أن هدف الصهيونية هو إقامة وطن للشعب اليهودى فى فلسطين يحميه القانون العام . وفى عام ١٩١٧، أى بعد مضى عشرين عاماً ، قدمت الحكومة البريطانية وعداً مماثلا لليهود لإقامة وطن قومى لهم فى فلسطين . وفى عام ١٩٤٧ ، أى بعد مضى ثلاثين عاماً على هذا الوعد ، كللت هذه الجهود بالنجاح، عندما وافقت الأمم المتحدة على إنشاء دولة إسرائيل. تلك هى الحقائق المجردة للقصة الغريبة لإنشاء دولة إسرائيل . وتتركز معظم أحداث التاريخ اليهودى فى الفترة ما بين سيدنا إبراهيم وهرتزل . ولم يتحدد شكل وطابع دولة المستقبل إلا فى السنوات التى تلت عام ١٨٧٩ عندما أصبحت الصهيونية حركة سياسية جادة . ولكى نفهم كيف تمكن اليهود من الوصول إلى المرحلة التى يجلس فيها ممثلو الدول الكبرى حول موائد المؤتمرات يتحدثون عن إسرائيل كدولة يمكن أن يكون لها وجود، وليس كمجرد فكرة غامضة ، يجب أن نتابع هذا الموضوع فيما قبل عام ١٨٧٩ ، أى فى القرون المظلمة عندما نشأت « مشكلة يهودية » ، لأنه بدون هذه المشكلة ما كانت لتقوم للصهيونية قائمة، وقد اعترف « هرتزل » بهذا عندما قال إن القوة الدافعة التى كانت تكمن وراء حركته تمثلت فى « بؤس اليهود وشقائهم » . وقد عبر بهذه الجملة المقتضبة عن أحوال جماهير اليهود العريضة خلال ثمانية عشر قرناً انقضت بين حركته وبين انهيار سلطة اليهود نهائياً فى القدس فى عهد الإمبراطورية الرومانية .

المنفى « يهود الشتات »

اتسم تاريخ الدولة اليهودية فى فلسطين فى عصور الديانات الاولى بالكثير من الاضطرابات ، كما يدرك هذا كل من هو على دراية بالكتاب المقدس . ولكن رغم الغزو والتشريد بقيت دولة إسرائيل كمجتمع له خصائصه القومية المميزة (وأهمها الإيمان بوحدانية الله) . ولم تستطع أى من الإمبراطوريات التى قامت بالمنطقة وبصفة خاصة الإمبراطورية الرومانية أن تقاوم طويلا الإغراء الذى تقدمه أرض فلسطين بموقعها الاستراتيجى ، وأرضها الخصبة ، فاستولى بومبى على القدس فى عام ٦٣ قبل الميلاد وأصبحت فلسطين منذ ذلك الوقت مقاطعة رومانية . وكانت آسيا الصغرى قد تعرضت قبل هذا بمائة عام أو أكثر للحملات الرومانية . وكان نصيب السكان المحليين فى أعقاب كل انتصار من هذه الانتصارات مزيداً من الآلام والمحن ، ولكن حالما كان يستقر النظام كان السلام الرومانى يهيئ فرصاً تجارية ضخمة سرعان ما استغلها اليهود ، بين آخرين ، لصالحهم . وخلال سنوات الحكم الرومانى ظهرت مجتمعات تجارية يهودية فى أجزاء كثيرة من شرق البحر المتوسط وآسيا الصغرى . وكانت فلسطين ما زالت مركز التجمع اليهودى الرئيسى ، ولكن حدث خلال هذه السنوات أن نمت مجتمعات يهودية كبيرة فى الخارج بدرجة تسمح لها بأن تترك بصماتها على الشئون المحلية .

وبدأ شيشيرون ، بعد مضى سنوات قليلة على استيلاء بومبى على القدس يشكو مما يمكن وصفه طبقاً للتعبيرات الحديثة « بمجموعة الضغط » اليهودية فى روما .

وهكذا لم يكن المنفى حدثاً منفرداً فى مرحلة معينة من التاريخ ، ولكنه عملية تشتيت مستمرة ومتواصلة ، بدأت على نطاق ضيق حتى قبل احتلال الرومان لفلسطين . ولكن إذا كان هذا التشتيت قد حدث طوعاً فى بداية

الأمر فقد تغيرت طبيعته بعد انتصار بومبى بجيلين تغيراً جذرياً . فقد أدى رفض اليهود القبول بالحكم الرومانى إلى قيام الرومان باتباع سياسة قمع وتعذيب سبق لهم أن طبقوها فى بعض مستعمراتهم حيث كانت القوميات المحلية — المتمثلة فى شعور واع بالشخصية القومية — فى بعض مناطق نفوذهم لا تقل اشتعالا عما كانت عليه فى فلسطين . وتكشف القصص التى تضمنها « العهد الجديد » عن حالة القلق التى كان يعانى منها اليهود . ولكن هذا لم يكن سوى البداية . ففى عام ٧٠ بعد الميلاد ، عم التمرد البلاد وكان من نتيجة هذا أن قام الرومان بحرق الهيكل الذى يعد بمثابة مركز أعصاب الدولة اليهودية ، وقتلوا كل من له علاقة بالتمرد أو ضموه إلى زمرة الرقيق، ومع ذلك استطاعت جيوب المقاومة اليهودية أن تفلت من هذا المصير .

وتكشف الحادثة المشهورة التى كانت قلعة مسادا مسرحاً لها — وهى قلعة قديمة على البحر الميت أثارت الحفريات الأخيرة الاهتمام بها من جديد — تكشف عن الإصرار غير الطبيعى الذى اتسمت به المقاومة اليهودية فى وجه مواقف ميئوس منها تماماً ، فقد صمد بضع مئات من المتحمسين وعائلاتهم فى وجه الحصار الرومانى لمدة تزيد على عامين ، وفى النهاية فضلوا الانتحار الجماعى على الوقوع فى الأسر أو الرق . ولم تكن هذه القصة المفزعة ، التى وضعها جوزيفوس ، المؤرخ المعاصر ، والتى أطلق عليها اسم «الضربة القاضية» للرومان فى الحرب ، بداية لنهاية متاعب الرومان مع اليهود . فقد قام اليهود بعد مرور ستين عاماً بطرد الرومان من القدس ، واحتفظوا بها لمدة ثلاثة أعوام حتى تمكن الإمبراطور هادريان من هزيمتهم بعد أن استدعى واحداً من أفضل قواده من بريطانيا خصيصاً لهذا الغرض . وكان الرومان قد وعوا الدرس فطالما ظل معظم سكان فلسطين من اليهود فإن متاعبهم لن تنتهى . ولهذا أمر الإمبراطور هادريان باستبعاد كل من بقى حياً من اليهود . وحينذاك بدأت عملية التشتيت الحقيقى .

وتمكنت قلة من اليهود من الإفلات من الانتقام الرومانى . ولم تختف الحياة

اليهودية فى فلسطين تماماً خلال القرون التالية عندما تعاقب الغزاة على فلسطين ومن بينهم العرب ، والصليبيون وأخيراً (فيما بين عام ١٥١٧ — وعام ١٩١٧) الأتراك العثمانيون ، فازدهرت جماعات صغيرة من اليهود وبخاصة فى صفد وطبرية حيث ذاع صيت الجماعات اليهودية الأدبى هناك . ولكن الدولة اليهودية أصبحت شيئاً ينتمى إلى الماضى ، وانتقل مركز مغناطيسية الحياة اليهودية إلى الخارج .

ويرجع الفضل فى إنقاذ مئات الآلاف من اليهود الذين استعبدوا فى مناطق مختلفة من الإمبراطورية الرومانية بعد هزيمتهم الأخيرة إلى تضامن الجاليات اليهودية خارج فلسطين ، حيث قام نفر منهم أوفر حظًّا بإنقاذ هؤلاء البؤساء من الرق ، وكثيراً ما كان يقوم أصحاب العبيد أنفسهم بإطلاق سراحهم ، لأن اليهودى كان خادماً مثيراً للمتاعب بسبب تقاليد اليهود الخاصة بنظام التغذية ، ورفضهم العمل فى أيام السبت تمشياً مع التعاليم الدينية . وهكذا أصبح زهاء مليون يهودى ممن كانوا يعيشون داخل حدود الإمبراطورية الرومانية أحراراً بعد عدة قرون من طردهم من فلسطين ، كما أصبح فى استطاعتهم فى أغلب الأحوال العيش بأسلوبهم الخاص دون أى تدخل من جانب السلطات ، حيث أصبح بمقدور الرومان أن يكونوا متسامحين بعد أن تخلوا نهائيًّا على ما يبدو عن مطامحهم القومية .

ولذا سمحوا لليهود بممارسة شعائرهم الدينية بحرية ، بل منحهم الإمبراطور حماية خاصة ، وهذه حال لو استمرت لتغير مدلول كلمة « المنفى » عما هو عليه الآن . ولكن الصورة تغيرت فجأة وبطريقة عنيفة فى القرن الرابع عندما جعل الإمبراطور قسطنطين المسيحية الدين الرسمى للإمبراطورية الرومانية .

وليس هناك شك فى أن ما عرف فيما بعد بالعداء ضد السامية وما يرتبط به — من فظائع الاضطهاد فى القرن العشرين — جاء نتيجة لعدم التسامح الدينى . فى خلال ١٥٠٠ عام تقريباً أطلق زعماء الكنيسة المسيحية العنان لميل الناس الطبيعى لمضاعفة صعوبة الحياة أمام هؤلاء الذين يرفضون الامتثال

لدينهم أو هؤلاء الذين يعبدون إلهاً آخر ، بل وقد شجع هؤلاء الزعماء ذلك الميل ، واستخدمت عملية صلب المسيح ذريعة لتبرير كل أنواع القسوة التى تعرض لها اليهود فى القرون الوسطى . (والصلب نوع من أنواع العقاب الرومانى وليس اليهودى) . وساد اعتقاد بين المسيحيين بأن من يستطيع تعميد يهودى (أى إقناعه باعتناق المسيحية) أو قتله إذا رفض التعميد حظى بالمغفرة وتخلص من كل ذنوبه . وهكذا كان اليهود فى أوربا فى القرون الوسطى يتوقعون فى أفضل الحالات نوعاً من الاضطهاد اليومى يتمثل فى حرمانهم من مزاولة معظم المهن والحرف ، ومن ملكية الأرض ، ويرغمهم على دفع ضرائب مجحفة ، وارتداء ملابس أو شارات ، ولكنه يتركهم وشأنهم فى أن يعيشوا حياتهم الخاصة وسط جالياتهم . أما فى أسوأ الحالات فكانوا يواجهون اضطهاداً نشيطاً يتضمن مصادرة البضائع والممتلكات والنفى أو التعذيب حتى الموت . ولم يحدث فى هذه القرون أن تعرضت إحدى الجاليات اليهودية فى مكان ما إلى اضطهاد من هذا النوع . وفى أوقات معينة كانت المذابح تنتقل من مكان إلى آخر كما كان يحدث مثلا عند بداية حملة صليبية أو عندما تلتهب المشاعر القومية لسبب أو لآخر ، وقد حدث فى إنجلترا مثلا أثناء الاحتفال بتتويج ريتشارد قلب الأسد أن قام بعض رجال حاشيته بمهاجمة وضرب وفد من اليهود جاء يقدم الهدايا للملك ، مما استفز الغوغاء خارج القصر ، فأضرموا النار فى مساكن اليهود . وعمت المذابح جميع أنحاء البلاد ، وتكررت مأساة مسادا فى قلعة يورك عندما قرر مائة وخمسون يهودياً لجئوا إلى القلعة مع عائلاتهم أن الانتحار أفضل لهم من الوقوع فى أيدى الغوغاء . وهز هذا الحادث البشع مشاعر الجماهير المحتشدة حول القلعة مؤقتاً فوعدوا الفئة التى بقيت على قيد الحياة من اليهود بتأمين حياتهم إذا ما خرجوا ، ولكن هذه اللحظة الإنسانية لم تدم طويلا ، وكان مصيرهم الذبح عندما هموا بالخروج من القلعة . وبطبيعة الحال كانت سياسة الدول المختلفة تتغير حسب تغير الوقت . فبينما كان إدوارد الأول يطرد اليهود من إنجلترا ثم من فرنسا كذلك فى نهاية القرن الثالث عشر

كانت أسبانيا وإيطاليا تستقبلهم . وكان من الممكن أن يصبح اليهودى الثرى محط الأنظار فى مركز تجارى هام مثل فيينا، عندما يزداد الطلب على القروض. ولكن هذا النوع من الشعبية، كما أوضح لنا شكسبير، قد ينقلب على صاحبه ويعود عليه بالضرر ، فكلما زادت الحاجة إلى اليهودى ازدادت كراهية الناس له ، وكان المسيحى الذى ينجح فى ابتزاز أموال دائنه اليهودى يعتبر رجلا فاضلا وليس مجرد رجل حاذق وذكى فقط .

وتكمن أهمية هذا بالنسبة للموضوع الذى نعالجه فى أسلوب الحياة اليهودية لقرون طويلة كان مقدمة حزينة لقصة الصهيونية ، ويتعذر علينا أن نفهم حقيقة ما أكسب الصهيونية قوتها بدون معرفة مدى آلام اليهود وأبعادها فى خلال هذه القرون الخمسة عشر . فقد أصبحت حقيقة الاضطهاد وعدم استقرار الحياة واضحة فى تقاليدهم ، وكانت تكيف حياة الأطفال اليهود منذ اللحظة التى يولدون فيها . وحاول بعضهم اعتناق المسيحية لتفادى هذه الأوضاع ولكن مع ازدياد العداء ضد السامية لم يعد هذا بكاف لضمان السلامة دائماً بل غالباً ما كان اليهود الذين اعتنقوا المسيحية ضحايا محاكم التفتيش الأسبانية المريعة . ولم يكن لليهود من ملجأ لقرون طويلة إلا فى أحيائهم التى عرفت باسم « الجيتو» وهى كلمة مشتقة من الإيطالية (وكان من المحرم عليهم شراء أراض مجاورة للمناطق السكنية المسيحية) وبعض مهن قليلة سمح لهم بممارستها ومن بينها إقراض الأموال بفائدة (وهى التى حظر على المسيحيين ممارستها إذ حرمت الكنيسة الربا) ورغم أن قلة من اليهود مارسوا مهنة إقراض الأموال بفائدة ، إلا أن معظم من كان يتعامل معهم العالم الخارجى من اليهود كانوا يمارسون هذه المهنة الأمر الذى جعل شخصية شايلوك فى مسرحية تاجر البندقية لشكسبير ، رمزاً للشخصية اليهودية . وفى الوقت نفسه بدأت صورة أرض الميعاد تأخذ أهمية رمزية إلى حد كبير، رغم أنها ظلت ركناً أساسياً من أركان الديانة اليهودية. وحالما كان يظهر أى « منقذ » واعداً إياهم بالعودة إلى الأرض المقدسة ، كان يصبح محط آمالهم لفترة قصيرة . ولكن مع مرور القرون وتعاقبها ، وبقاء

أرض الميعاد بعيدة عنهم – كما كانت دائماً – خيم عليهم نوع من الاستسلام حتى للمنفى والآلام .

ولم يكن لعصر النهضة والأفكار المستنيرة التى صاحبته سوى تأثير ضئيل على أحوال اليهود فى البداية ، وجاء التغيير الحقيقى فى أواخر القرن الثامن عشر وأثناء التاسع عشر – وجاء تحرير اليهود – أى قبولهم كمواطنين عاديين لهم حقوق متساوية فى كافة المجالات – جاء تدريجياً فى بعض الأماكن مثل إنجلترا ، وفجأة فى أماكن أخرى مثل فرنسا بعد ثورة ١٧٨٩ وأصبح جميع اليهود فى غرب أوربا ، فى أواخر القرن التاسع عشر أحراراً من وجهة النظر الرسمية . ولم يعد هناك – نظرياً – ما يحول دون أن يأخذوا أماكنهم كمواطنين عاديين فى البلاد التى يعيشون فيها .

ولكن لم يكن التحول سهلا ، فقد أثار « التحرير » تساؤلات جعلت اليهود يعيشون فى دوامة من الشك ، فربما لم تكن هناك أية حواجز أو عوائق رسمية تمنعهم من الاندماج فى العالم الذى يعيشون فيه ولكن المجتمع ككل كان بطيئاً فى قبوله للنزعة التحريرية الجديدة ، إذن كيف يتأكدون من اندثار معاداة السامية واختفائها حقيقة ؟ وكان تاريخ عائلة روتشيلد أحد الأمثلة على كيفة قبول اليهود كمواطنين فى المجتمع المحيط بهم بل وإمكانهم أن يصبحوا من شخصياته البارزة كذلك دون أن يتخلوا عن يهوديتهم . ولكن عائلة روتشيلد كانت متفوقة فى مجال المال وهو مجال يهودى تقليدى ، وكان من الصعب تحقيق نجاح فى مجال آخر غيره مع بقاء اليهودى على ديانته . لقد وصل بنيامين ديزرائيلى مثلا إلى القمة فى مهنته ولكن بأى ثمن ؟ لقد قطع صلته بجنسه بعد أن اعتنق المسيحية . وقد يعنى هذا النوع من الذوبان نهاية اليهودية فى المدى الطويل الأمر الذى جعل كثيرين من اليهود يسألون أنفسهم عما إذا كانوا قد اضطهدوا قروناً طويلة لتمسكهم بدينهم انتظاراً لليوم الذى تتحسن فيه أحوال حياتهم فيتخلون طواعية عن هذا الدين ؟

وأثناء هذا شهدت أوربا الشرقية أحداثاً كانت لها أهمية قصوى بالنسبة

لدولة إسرائيل القادمة . فقد عاش مليونان من اليهود فى روسيا ، وهذا أكبر من أى تجمع يهودى فى أى بلد آخر ، ولم تكن هناك أحياء يهودية ، أو ما عرف باسم « الجيتو » ولكن خصصت لهم منطقة ضخمة فى الأقاليم الغربية حرم عليهم أن يعيشوا خارجها . وقد عاشوا هناك فى مجتمعات فقيرة جداً وإن تمتعت ببعض الاستقلال الذاتى مما خلق « عالماً يهودياً » حقيقيا معزولا تماماً تقريباً عن العالم الخارجى . وحتى عندما أصبحت باقى أجزاء روسيا مفتوحة أمام طبقات معينة من اليهود أثناء حكم الإسكندر الثانى وكان من القياصرة الأكثر تحرراً (١٨٥٥ — ١٨٨١) ظل الجزء الأكبر من اليهود الروس على حالهم دون تغيير يعيشون على أحلامهم الدينية مقتنعين بأنها لن تتحقق أبداً . وفى الحقيقة فقد عاشوا حياة تقليدية قاسية يقيدها التوراة والتلمود (وهما مجموعة ضخمة من الكتابات والتعليقات اليهودية التى ظهرت أثناء فترة المنفى والتى شكلت مجموعة ضخمة من القواعد والتعاليم التى تمس كافة جوانب حياتهم) .

وكان صغار الصبية من اليهود يقبلون على التعليم بطريقتهم الخاصة على عكس معظم الشبان الروس آنذاك ، إذ كانوا جميعاً يذهبون فى سن مبكرة إلى المدارس التلمودية ليزيدوا من معرفتهم بدقائق القانون اليهودى تحت إشراف وتوجيه الحاخامات . ورغم أن آفاقهم كانت ضيقة فإن قدراتهم الذهنية كانت على أعلى المستويات . وهكذا فعندما فتح الإسكندر الثانى مدارس وجامعات روسيا أمام الطلبة اليهود أقبلوا عليها ظمآى من أجل التعليم وإذا كانت موجة « التحرر » قد أصابت اليهود الغربيين بالاضطراب فإن المثقفين اليهود الذين طعم بهم الإسكندر الثانى المجتمع الروسى كانوا أكثر اضطراباً . فقد كانت هناك ، بالاضافة إلى القضية اليهودية البحته الخاصة بموضوع التقاليد فى مواجهة الاندماج ، قضايا أيديولوجية لا حصر لها مما كانت تموج بها روسيا القيصرية فيما قبل الثورة . ومما زاد من اضطرابهم إن الافكار الخاصة بالقومية ، وحق تقرير المصير التى كانت قد شاعت حديثاً قد بدأت تصل إليهم من الغرب . فإذا كان بمقدور فلاحى مولدافيا ، ووالشيا مثلا تكوين دولة لأنفسهم (وقد تحقق

استقلالهم عن تركيا طبقاً لمعاهدة برلين عام ١٨٧٨) . فلماذا لا يكون للمليونى يهودى الذين يعيشون فى روسيا الحقوق نفسها ؟

وكانت المشكلة . . . أين ؟ وبدا المثقفون اليهود ، لفترة من الوقت وكأنهم يربطون أملهم فى تكوين شخصية قومية بروسيا الجديدة الثورية التى كانت تنمو شيئاً فشيئاً تحت حكم القياصرة . وعلى أية حال فقد دفعت الرغبة نفسها فى إقامة إطار قومى ، اليهود الغربيين إلى الارتباط بالمجتمع المحيط بهم والاندماج فيه . ولكن حدث أن اغتيل ألكسندر الثانى فى عام ١٨٨١ ، واتخذ هذا ذريعة لشن هجمات متعددة شاملة ضد اليهود ، استمرت متقطعة خلال الجيل التالى كله . وبغض النظر عن مشاعر اليهود تجاه المجتمع الروسى فقد لفظهم بطريقة نهائية .

ولم يعد هناك بعد ذلك سوى جواب واحد على السؤال الخاص بمكان إحياء القومية اليهودية . ويصف واحد من أوائل الصهاينة ممن أمضوا شبابهم فى روسيا وهو شماريا ليفين — يصف فى مذكراته أثر هذا الاضطهاد المتجدد فيقول : « وهربت فى لحظات الرعب واليأس هذه إلى ذلك العالم القديم الذى أحمله بين جنباتى ، عالم صهيون والتوراة » . ولكن « صهيون » كان قد أصبح أكثر من مجرد حلم داخلى يجلب العزاء للنفس . وقد كون اليهود الروس ، فى الثمانينات من القرن التاسع عشر جمعية أطلق عليها اسم « محبو صهيون » بهدف إقامة مستعمرات زراعية فى فلسطين ، وهاجرت عائلات كثيرة إلى فلسطين تحت إشرافها ، وكانوا يبعثون بتقارير متفائلة عن موطنهم الجديد بالرغم من الصعاب التى كانوا يقابلونها . ولم يكن لهؤلاء المستوطنين الأوائل ، أهمية من الناحية العددية ، كذلك لم يكونوا أول من حاول من اليهود اقامة مستعمرات منظمة فى فلسطين فى القرن التاسع عشر ولكن تجربتهم كانت أهم من تجارب غيرهم لأنها كانت أول حركة شعبية حقيقية بين اليهود للعودة إلى فلسطين ، كما كانت نقطة البداية لحركة الهجرة الضخمة لليهود الروس التى شهدها الجيل التالى ، والتى شكلت فى الواقع المنطلق الرئيسى للصهيونية ، فبدون هؤلاء المهاجرين الروس

لم يكن من الممكن أن تقوم لإسرائيل قائمة .

وكانت هناك نظريات متعددة حول نوع المجتمع المطلوب إقامته لتحقيق وتوفير « الشخصية القومية » التى كان اليهود يسعون وراءها . وكما حدث قبيل الثورة الفرنسية عندما رسم كل فيلسوف تصوره للمجتمع السليم كان لكل كاتب صهيونى تصوره الخاص للمجتمع الصهيونى ، هذا التصور الذى كان غالباً ما يتأثر بالمجتمع الذى عاش فيه الكاتب . فقد رأى موسى هس أول من تحدث عن دولة يهودية — وظهرت كتاباته بالألمانية فى الستينات من القرن التاسع عشر ، وكان من أشد المعجبين بكارل ماركس — رأى أن اليهود لا يمكنهم إقامة مجتمع اشتراكى حقيقى إلا فى الإطار القومى لفلسطين . أما آشر جينزبرج أعظم كاتب صهيونى فى روسيا والذى عرف باسمه الأدبى آشاد هعام فكان يرى العودة إلى فلسطين كنوع من عمليات الإنقاذ تهدف إلى إنقاذ اليهودية . وكان هناك غيرهما كثيرون ، وفى الواقع كان هؤلاء الكتاب يعبرون عن حقيقة بسيطة وهى أن الحياة فى المنفى لم تعد تحتمل أو تطاق وبخاصة بعد أن جعلهم التحرر الجزئى يتطلعون إلى الحرية الحقيقية . ولكنهم غلفوا هذه الحقيقة البسيطة بنظرياتهم المفضلة . وقد تمكن يهودى عاش فى المجتمع الغربى واندمج فيه إلى حد ما ، ولم يرتبط بأية اتجاهات أيدلوجية ، وهو تيودور هرتزل ، من أن يعبر عن هذه الفكرة أو الحقيقة ببساطة لدرجة أنها استحوذت على خيال الناس على نطاق واسع .

ولد تيودور هرتزل فى بودابست عام ١٨٩٠ ولكنه درس فى فيينا وعمل فيها بعد ذلك فى إحدى الصحف اللبرالية الرئيسية .

وكانت نظرته للشئون الدولية تنم عن سعة أفق وكبرياء يدل عليهما كذلك مظهره ، إذ وصفه أحد معاصريه بأن له شخصية مهيبة نبيلة ، (حيث كان طويل القامة ذا لحية مدببة سوداء) . وقد فرضت المشكلة اليهودية ، على حد قوله ، نفسها عليه سنوات طويلة ، ولكنه انشغل بمشكلات أخرى كثيرة غيرها لا علاقة لها بالشئون اليهودية على وجه التحديد حتى عام ١٨٩٥ عندما

أصبحت المشكلة اليهودية فجأة شاغله الوحيد . وكان فى باريس فى هذا العام ، لتغطية محاكمة دريفوس . وكانت فرنسا تعتبر إحدى الدول الأكثر استنارة — بصفة عامة — فى موقفها من اليهودية ، ولكن إدانة الكابتن الفريد دريفوس بتهمة التجسس وتجريده من رتبته اثارت موجة من العداء ضد السامية فى أنحاء البلاد .

وشاهد هرتزل — وكله فزع ورعب — الجماهير الغاضبة خارج قاعة المحكمة وهى تصيح « الموت . . . الموت لليهودية » . وكتب فى العام التالى كتاباً قصيراً بعنوان « الدولة اليهودية » ضمنه الحل الذى يراه للمشكلة اليهودية . وكان هذا الحل — كما يشير عنوان الكتاب — هو إقامة دولة ، لا لبناء الاشتراكية أو إنقاذ اليهودية بل بكل بساطة دولة لإنقاذ اليهود . ولم تكن هذه بفكرة جديدة كما قال هو نفسه ولكن منطقه البسيط القوى جعلها أكثر إلحاحاً من ذى قبل . ولكنه لم يذكر أين تقام الدولة ، وقدم اليهود الروس الجواب على هذا . وكان لكتاب هرتزل مسرى الكهرباء بين اليهود الروس . ويصف واحد من ألمع قادتهم وأكثرهم ذكاء . والذى أصبح فيما بعد زعيم الحركة الصهيونية كلها ، وأول رئيس لدولة إسرائيل بعد ذلك وهو حاييم وايزمان ، يصف فى مذكراته كيف نزل عليهم هذا الكتاب كالصاعقة من السماء . وكان هرتزل غريباً عنهم تماماً ، ولكنهم شعروا بطريقة ما بأنه جاء ليخلصهم وينقذهم .

وقام هرتزل فى عام ١٨٩٧ ، أى بعد عام واحد من صدور كتابه « الدولة اليهودية » بتنظيم المؤتمر الصهيونى الأول ، وكان نصف أعضائه من الروس الذين نظروا إلى هرتزل على أنه منقذهم . وكان هرتزل الذى نشأ وترعرع فى عاصمة غربية وشاهد مكائد ودسائس الدول الكبرى ، يعتقد أن من الممكن حل كل شىء عن طريق الدبلوماسية ذات المستوى العالمى ، وكان يقول انه طالما استطعنا بذل ضغوط فعالة فمن الممكن إقناع تركيا ببيع جزء من فلسطين أو كلها إلى اليهود ، وكانت فلسطين أحد أقاليم الإمبراطورية التركية ، وعندما ظهرت تركيا بمظهر العناد تحول هرتزل إلى المساومة مع الحكومة البريطانية التى عرضت عليه

أوغندا . ولهذا العرض الشهير أهمية خاصة ، رغم أنه لا يعدو أن يكون حدثاً تفصيلياً فى تاريخ تلك الحقبة ، لأنه كشف بوضوح عن خلاف عميق بين نوعين من الصهيونية أولهما كان على استعداد لقبول حل وسط لإقامة دولة من أى نوع وبأى ثمن ، أما الآخر فكان مصراً على إقامة دولة من نوع معين ، وفى مكان معين ، وكان على استعداد للانتظار حتى يتم تحقيق هذا . وأثار هذا الموضوع جدلا ، اتخذ أشكالا مختلفة حتى قبل إنشاء دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ . وفى بعض الأحيان يعود هذا الخلاف إلى الظهور فى أشكال مختلفة حتى يومنا هذا . وكان هرتزل يميل إلى وجهة نظر المجموعة الأولى ، فقد أقنعته المذبحة الوحشية التى تعرض لها اليهود فى كيشنيف بروسيا عام ١٩٠٣ ، والتى سرعان ما امتدت إلى مناطق أخرى ، بأنه يتحتم على اليهود بأن يمسكوا بأية فرصة تسنح لهم مهما كان شأنها . ودافع عن وجهة نظره فى المؤتمر الصهيونى الذى انعقد عام ١٩٠٣ قائلا : « لنعمل على إنقاذ هؤلاء الذين ما زالت أمامنا فرصة لإنقاذهم » ؟ . . .

وذكر فى معرض تعليقه على « عرض أوغندا » الذى قدمته بريطانيا أنها (أى أوغندا) ليست «صهيون» ، ولا يمكن أن تكون بديلا عنه ، ولكنها تعتبر بمثابة إجراء عاجل لإنقاذ شخصية الشعب اليهودى .

ولكن مندوبى يهود دول أوربا الشرقية لم يقتنعوا بحجته ، وقام زعماؤهم ، الواحد تلو الآخر ، ومن بينهم حاييم ويزمان يعلنون عن رفضهم اقتراحه بقبول « عرض أوغندا » ، وقد انتابهم فى بداية الأمر الحرج لخروجهم على قادة الحركة الصهيونية ولكن ازداد اقتناعهم فيما بعد بوجهة نظرهم من حيث رفض أوغندا لتكون وطناً قومياً لليهود . ويقال إن هذا الرفض ترك أثراً عميقاً فى نفس هرتزل الذى مات فى العام التالى وعمره أربعة وأربعون عاماً ، فلم يعد أحد يتشكك من بعده فى أن « صهيون » الصهيونية هى أرض الميعاد وليس أى مكان آخر . ولكن « صهيون » أو أرض الميعاد كانت لا تزال فى حوزة تركيا . وفى بداية القرن العشرين لم يتمكن سوى بضعة آلاف قليلة من اليهود من الاستيطان

فى فلسطين حيث كان القانون التركى يحرم ملكية اليهود للأرض . وقد لا يكون من المبالغة فى شىء أن نقول إنه أثناء هذه السنوات عاش السياسيون الصهاينة فوق أرض وهمية ، وربما كان من الصعب علينا الآن أن نعرف إلى أى مدى كانت أفكارهم وقتئذ خيالية ، ولكن الحقيقة كانت تلوح بين الحين والآخر كما حدث عام ١٩٠٠ عندما تظاهرت مجموعة رثة الثياب كئيبة المظهر من اليهود اللاجئين من أوربا الشرقية خارج قاعة المؤتمر الصهيونى الذى كان منعقداً فى لندن حينئذ وقد أثار مظهرهم البائس الضيق فى نفس حاييم ويزمان وجعله يدرك الهوة التى تفصل بين أحاديث الصهاينة التى تزخر بالمبالغة وبين الواقع . وعملت المنظمة الصهيونية تدريجيا ، فى السنوات التى تلت موت هرتزل ، على دعم نفسها ، فأنشأت الصندوق القومى اليهودى لشراء الأراضى فى فلسطين (عن طريق الرشاوى وغير ذلك من الحيل حتى يأتى وقت تخفف فيه القوانين التركية) بأموال جمعت من اليهود فى كافة أنحاء العالم ، وهكذا ازداد عدد المستعمرات تدريجياً . ولكن حجم التجربة الصهيونية كان ما زال شيئاً يرثى له ، وكما قال وايزمان «كانت بضع مئات قليلة من الأفدنة تعتبر أرضاً شاسعة ، وكان وصول حفنة من المهاجرين حدثاً هاماً ، وإنشاء إحدى الصناعات الصغيرة إنجازاً ضخماً» .

وكان هذا كله بمثابة صرخة دولة لا أمل منها ، ولكن هرتزل كان قد تكهن عام ١٨٩٧ بأن «الناس سيرون هذه الدولة بعد خمسين عاماً» ولقد صدق حدسه ، فكيف حدث هذا ؟

وعد بلفور

ارتفعت القضية الصهيونية كلها ، خلال سنى الحرب العالمية الأولى إلى مستوى السياسة الدولية عندما قررت الحكومة البريطانية أن تجند الصهيونية لخدمة المجهود الحربى ، وقيل آنذاك ان مساعدة الصهيونية سيجعل اليهود الصهاينة فى البلاد الأخرى ، وبخاصة فى أمريكا ، التى لم تكن قد دخلت

الحرب بعد ، وفى روسيا التى كانت تهدد بعقد سلام منفرد مع ألمانيا بعد ثورة الربيع فى عام ١٩١٧ ، يضغطون على حكوماتهم لإنهاء الحرب . وكان هذا هو منطق الصهاينة أنفسهم .

وتولى وايزمان ، الذى كان يقوم بتدريس الكيمياء فى مانشستر ويجرى أبحاثاً ثمينة فى الوقت نفسه على الذخائر ، المفاوضات نيابة عن المنظمة الصهيونية فعرض فى عام ١٩١٦ وجهة نظره على لويد جورج وأعضاء الوزارة البريطانية وبدا أن إصدار بيان مؤيد للصهيونية ، كمكافأة بسيطة حركة ماهرة ذكية فى ظاهرها ، قصد بها مصلحة كافة الجوانب . وكان هناك بالإضافة إلى العامل العاطفى الذى أكده بلفور ، وزير خارجية بريطانيا فى ذلك الوقت ، اعتقاد راسخ بأن الحضارة الأوربية بأسرها تتحمل ذنب الجرائم العظمى التى ارتكبت ضد اليهود . وكان مثل هذا البيان وسيلة لتعويضهم عما لحق بهم .

وهكذا صدر فى شهر نوفمبر عام ١٩١٧ البيان الهام المؤيد للصهيونية ، على شكل خطاب من بلفور إلى اللورد روتشيلد المتحدث باسم اليهود البريطانيين وكان نص الفقرة الحاسمة كما يلى :

(إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين ، وتبذل غاية جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية ، على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى) .

واتسمت الألفاظ التى صيغ بها البيان بغموض متعمد ، فما هو معنى « وطن قومى » على وجه التحديد ؟ كانت هذه وغيرها من العبارات مثار خلاف وشجار تولدت عنه مرارة متزايدة فى السنوات الثلاثين التالية لأن الأمر تعدى القضية اليهودية إلى ما هو أكثر منها .

كان البريطانيون قد قرروا ، قبل صدور وعد بلفور ، وهم يبحثون عن أفضل الوسائل لدعم المجهود الحربى ، تشجيع آمال العرب القومية ضد تركيا التى كانت تسيطر على مقدراتهم . فقد اضطر الحلفاء إلى إعلان الحرب على

تركيا بعد مضى شهور قليلة على نشوب الحرب فى أوربا . وشعرت فرنسا وبريطانيا بأنهما لو نجحتا فى إقناع العرب بالتعاون مع الحلفاء فإن هذا لن يؤدى إلى تقويض دعائم مجهود تركيا الحربى فقط (وكذلك مجهود ألمانيا الحربى) بل سيتيح لهما الفرصة للمحافظة على مصالحهما الاستراتيجية فى الشرق الأوسط . وهكذا عقدا مع العرب صفقة مماثلة لوعد بلفور وإن كانت أكثر تعقيداً بعض الشىء . فاتفق على أن يؤيد الحلفاء استقلال العرب بعد الحرب فى مقابل أن يثور العرب ضد الأتراك أثناءها ، وأن يقدموا امتيازات معينة أخرى للحلفاء فيما بعد . وترجع التعقيدات إلى حقيقة وجود شكوك عميقة لدى كل من بريطانيا وفرنسا إزاء دوافع أخرى ، وأصبح كل منهما ، بعد الثورة البولشفية أكثر حرصاً وحذراً تجاه دوافع روسيا . وهكذا فإن الاتفاقات والوعود السرية المختلفة لم تكن تتناقض فقط مع روح وعد بلفور لكنها كانت تتناقض كذلك مع بعضها البعض . وما زالت الورطة التى نجمت عن هذا ، والتى عرفت فيما بعد « بالمشكلة الفلسطينية » دون حل حتى الآن . ويمكن إيجاز الخطوات التى أدت إليها فيما يلى :

(١) خطابات سير هنرى ماكماهون المتبادلة بين المندوب السامى البريطانى بالقاهرة فى أواخر عام ١٩١٥ وشريف مكة التى أبدت فيها بريطانيا موافقتها على تأييد استقلال العرب فى مناطق معينة (لم تحدد بدقة) والتى أعلن البريطانيون فيما بعد أنها لاتضم فلسطين فى حين أكد العرب أن فلسطين إحداها . (وقد نجحت الوعود فى الوصول إلى أهدافها آنذاك وتفجرت ثورة العرب ضد تركيا فى عام ١٩١٦)

(٢) معاهدة سايكس — بيكو (السرية) فى بداية عام ١٩١٦ التى تضمنت اتفاق كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا على تقسيم الإمبراطورية التركية بعد الحرب فيما بينهم ، مع جعل فلسطين منطقة دولية .

(٣) وعد بلفور الذى صدر فى نوفمبر عام ١٩١٧ .

واستقبل وعد بلفور بالفرح والابتهاج من جانب الصهاينة ، وبعداء من جانب بعض اليهود المعادين للصهيونية فى أوربا وأمريكا ، أما العرب

والعناصر المؤيدة لهم فى بريطانيا فقابلوه باستياء وذعر ، إذ كان واضحاً أنه لا يمكن التوفيق بينه وبين الوعود التى قدمت للعرب . وكان يمكن نظرياً أن يصبح إنشاء وطن قومى لليهود متفقاً مع استقلال العرب ، فقد التقى فيصل بن شريف مكة ، فى عام ١٩١٩ مع حاييم وايزمان فى فرساى ووافق على تشجيع هجرة اليهود واستيطانهم فى فلسطين بشرط تحقيق مطالبه بشأن الاستقلال . ولكن حدث فى العام التالى أن قامت بريطانيا ، تمشياً مع السياسة التى رسمتها معاهدة سايكس – بيكو ، بالحصول على موافقة عصبة الأمم بوضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى ، وأصبحت فلسطين فى حقيقة الأمر محمية بريطانية . وأشارت مقدمة وثيقة الانتداب إلى وعد بلفور إذ تقول « وقد اعترف بالصلة التاريخية التى تربط الشعب اليهودى بفلسطين وبالأسباب التى تبعث على إعادة إنشاء وطنهم القومى فى تلك البلاد . . »

ونص قرار الانتداب على إنشاء وكالة يهودية فى فلسطين للتعاون مع حكومة الانتداب التى يشرف عليها مندوب سام من جهة ومع المنظمة الصهيونية العمالية من جهة أخرى . وتقرر أن تكون اللغة العبرية إحدى اللغات الرسمية الثلاث (بالإضافة إلى الإنجليزية والعربية) . وكان على حكومة الانتداب أن تعمل على تسهيل الهجرة اليهودية وتشجع الاستقلال المحلى .

وهكذا أصبح واضحاً تعذر تحقيق الاستقلال العربى ، وكان من الممكن تنفيذ اتفاقية « الجنتلمان » بين وايزمان وفيصل لو أن كلا من الطرفين حصل – ولو على الأقل – على بعض ما أراد . وقد يتخيل المرء ، وهو جالس فى غرفة استقبال مثلا أن هذا شىء ممكن ، وهو التوفيق بين هذين الحلمين ، ولكن الأمر لم يكن حديثاً مهذباً بل موقفاً سياسياً يهدد بانفجار بالغ العنف . فقد كان يقف خلف فيصل أكثر من نصف مليون عربى فلسطينى يتحرق زعماؤهم شوقاً إلى الحكم الذاتى ، أما وايزمان فكانت تقف وراءه جماهير الصهيونية الذين بدءوا ينظرون إلى « الوطن القومى » على أنه مرادف « للدولة » متجاهلين حقيقة أن عدد السكان اليهود فى فلسطين آنذاك لم يتعد عشر عدد السكان العرب .

الانتداب البريطانى

إن كل الأحداث التى وقعت خلال السنوات الثمان والعشرين التالية وهى فترة ما بين بداية الانتداب البريطانى عام ١٩٢٠ ، ومغادرة آخر مجموعة من القوات البريطانية فلسطين فى ١٤ مايو عام ١٩٤٨ ، هذه الأحداث كلها لها جذورها فى الوعود المتناقضة التى قدمها البريطانيون ، والآمال المتعارضة التى ترتبت عليها .

إن تاريخ الانتداب بالغ التعقيد فى تفصيلاته ، ولكنه سار فى إطار عام بسيط وهو إطار العلاقات التى ظلت تتدهور باستمرار بين أطراف النزاع الثلاثة وهم البريطانيون والعرب واليهود . وانتهى الأمر بالعرب واليهود الذين كانوا يشكون فى نوايا بعضهم البعض منذ البداية ، إلى كراهية كل منهم للآخر . وتعرض البريطانيون ، الذين عهد إليهم بإدارة الانتداب بطريقة تسمح بإقامة الوطن القومى اليهودى — تعرضوا للوم وتقريع العرب المستمرين لقيامهم بهذا ، وعندما سادت الآراء الموالية للعرب تعرضوا للوم اليهود لعجزهم وفشلهم فى حماية مصالحهم . وقد رفض العرب ، فى الحقيقة ، الاعتراف بالانتداب لأنه تضمن الإشارة إلى وعد بلفور وجرت محاولات متعددت فى لندن والقدس ، مقر حكومة الانتداب ، لتعريف الانتداب بطريقة تجعله مقبولا من جانب جميع الأطراف ، فأرسلت لجان التحقيق (أربع منها بريطانية ، وواحدة أنجلو أمريكية ، وأخرى تابعة للأمم المتحدة) ، وصدرت ثلاثة كتب بيضاء فى الأعوام ١٩٢٢ ، ١٩٣٠ ، ١٩٣٩ . وتقدم الوزراء الذين عهد إليهم بالمشكلة الفلسطينية ، ابتداء من ونستون تشرشل أول وزير للمستعمرات يتناول المشكلة بالمعالجة ، إلى أرنست بيفن وزير الخارجية الذى أعاد المشكلة إلى الأمم المتحدة ، تقدموا باقتراحات لحل المشكلة ، ولكن تعذر استرضاء أى من طرفى النزاع فى فلسطين دون المخاطرة بتوجيه إساءة بالغة إلى الطرف الآخر . وبمرور الوقت

ازداد المتطرفون فى كلا الجانبين قوة حتى لم يعد يرضى أى منهما بما يقدم إليه من امتيازات . وكان رد الفعل إزاء أولى محاولة لإيجاد حل وسط والتى ضمنها ونستون تشرشل كتابه الأبيض فى عام ١٩٢٢ ، دليل شؤم على الطريقة التى ستتطور بها الأحداث فيما بعد . وتردد أن سير هيربرت صامويل ، أول مندوب سام بريطانى فى فلسطين ، وهو يهودى ، أثر على طريقة صياغة البيان . وهكذا ازدادت تطلعات اليهود واتسعت ، ولكن الكتاب الأبيض أشار إلى أنه لن تكون هناك أية محاولة لفرض « الجنسية » اليهودية على سكان فلسطين بأسرهم . ويجب على اليهود ، من جهة أخرى ، أن يدركوا أنهم جاءوا إلى فلسطين «كحق لهم وليس كمنة عليهم » لكى يتسنى لمجتمعهم أفضل فرص التطور . وكانت هذه الكلمات الأخيرة غامضة فلم ترض الصهيونية . فقد اعتبر اليهود الضمان المعقول الذى قدم للعرب بخصوص مسألة الجنسية خيانة كاملة ، كذلك جاء الكتاب الأبيض لتشرشل مخيباً لآمال العرب إذ لم يعلن عن رفضه لوعد بلفور .

وكان هناك دائماً أفراد استطاعوا أن يخلصوا أنفسهم من روح التعصب التى اتسم بها الآخرون . فقد كان هناك من الجانب اليهودى الفيلسوف بوبر مارتن ويهوذا ما جنيس أول مدير للجامعة العبرية بالقدس ، وكان كلاهما خير معبر عن وجهة النظر الخاصة بالقومية الثنائية ، والتى رأيا أن الحركة الصهيونية ستصبح ضعيفة وسقيمة ما لم يعمل العرب واليهود معاً لبناء الدولة ، وكاد وايزمان أن يتفق مع بعض آرائهم فى البداية ، ولكن الفكر الصهيونى تخطاهم بمضى الوقت وخلفهم وراءه .

وكانت الهجرة بالنسبة للصهاينة مفتاح كل شىء ، فقد نشبت أزمات أدت إلى صدامات مباشرة وعلنية بين العرب واليهود حول كل موضوع يمكن تصوره مثل حق شراء الأراضى ، والمرور إلى الأماكن المقدسة، والعمل . ولكن موضوع الهجرة أثار أضخم الانفعالات وأكثرها حدة ، لأنه بدون الهجرة،أى بدون الناس ، ما كانت لتقوم للوطن القومى اليهودى قائمة . وكان

الجانبان يدركان هذا الأمر الذى انعكس على تصرفاتهما . واتبع الصهاينة سياسة ذات شقين هما تشجيع اليهود فى الخارج على الهجرة إلى فلسطين ، واقتناع البريطانيين بأن السماح بدخولهم لن يؤثر على قدرة الاستيعاب الاقتصادى للبلاد (التى كانت المعيار الذى يتحكم فى دخول اليهود إلى فلسطين) . أما العرب فكان هدفهم بذل أقصى ضغط ممكن على الجانب البريطانى لوقف سيل الهجرة اليهودية .

وبدت مخاوف العرب ، فى بداية عهد الانتداب البريطانى، وكأنها لن يكون لها أى أساس أو مبرر ، فكان عدد المهاجرين اليهود يتراوح بين خمسة آلاف وتسعة آلاف شخص سنويًّا ، وقفز فجأة فى عام ١٩٢٦ حتى بلغ ٣٣٠٠٠ مهاجر فى أعقاب موجة الاضطهاد التى تعرض لها يهود بولندا ، ثم انخفض العدد مرة أخرى فى عام ١٩٢٧ إلى أدنى مستوى ، بل إن عدد من غادروا فلسطين فى الواقع فاق فى ذلك العام بالذات عدد المهاجرين إليها . ولم يكن هناك من يستطيع أن يتكهن بأحداث الثلاثينات فى القرن الحالى وما يمكن أن يؤدى إليه انتصار الفاشية فى أوربا . وبدا وكأن الوطن القومى سيظل مجتمعاً صغيراً وسط دولة أغلب سكانها من العرب . وكان الفشل الظاهرى فى إنشاء الوطن القومى آنذاك يبعث الطمأنينة فى نفوس العرب رغم تيقظهم لنوايا الصهيونية . وظل العرب أثناء الجزء الأكبر من العشرينات من القرن الحالى كسابق عهدهم منذ بداية عهد الانتداب مجتمعاً غير منظم يمزقه العداء المستحكم الذى ورثته عائلاته الرئيسية ، حتى بدءوا يلتفون فيما بعد حول الحاج أمين الحسينى مفتى القدس (زعيم الطائفة الإسلامية) ، وإن ظلت سياستهم سلبية تماماً هدفها ببساطة إرغام البريطانيين على الرجوع عن وعد بلفور . وكان واضحاً أن مجتمعاً يهوديًّا قام فى فلسطين ليبقى هناك . وفقد العرب القدرة على الحد من آمالهم بعد أن بالغوا فى تصويرها ، ولكن حصول شرق الأردن على استقلاله عن فلسطين قد أشعل حماسهم ، وهو الذى كان يشرف البريطانيون على إدارته بجانب فلسطين طبقاً لقرار الانتداب الذى أصدرته عصبة الأمم ،

فحقق قدراً كبيراً من الاستقلال القومى فى عام ١٩٢٨ تحت رياسة الملك عبد الله (شقيق فيصل) . وزاد هذا من إصرار الفلسطينين العرب على عدم قبول حل وسط . وكانوا يدركون أنه لولا وعد بلفور ، والسكان اليهود الذين شعروا (أى الفلسطينيين العرب) بأنهم فرضوا عليهم ، لتمتعوا بدورهم بحكم ذاتى حقيقى. وحلت المرارة محل ما افتقدته سياستهم من حسن حيلة ودهاء، ولم يكن هذا بلا طائل ، فقد حقق بعض النجاح إذ بدأت السياسة البريطانية — التى كانت موالية للصهيونية فى العشرينات من القرن الحالى بصفة عامة (رغم إنكار الصهاينة المتطرفين لهذا) — بدأت هذه السياسة البريطانية فى التحول ففى عام ١٩٢٩ شن العرب هجوماً عنيفاً على اليهود فى القدس ، فى حين حدثت مذبحة صغيرة فى الخليل وكان رد الحكومة البريطانية على هذا ، إصدار كتاب أبيض يفرض قيوداً صارمة على الهجرة اليهودية ، دون أن تأخذ فى اعتبارها الخطأ والصواب فى هذا الحادث ، وحقيقة أن الهجوم العربى لم يكن له ما يبرره إطلاقاً .

ووصل هذا الكتاب الأبيض ، الذى اعتبره اليهود عدائيًّا ، والذى جاء فى أعقاب الهجمات العربية الوحشية مباشرة ، بآمالهم إلى الحضيض ، وإن لم تدم هذه الحال طويلا كما اتضح فيما بعد . فقد أثار عاصفة لا فى فلسطين وحدها بل وفى بريطانيا كذلك ، الأمر الذى أرغم الحكومة البريطانية على التراجع . فبعث رامزى ماكدونالد ، رئيس الوزراء البريطانى ، خطاباً فى عام ١٩٣١، إلى وايزمان أعاد فيه تأكيد التزام إدارة الانتداب « بتسهيل الهجرة اليهودية وتشجيع إقامة مستعمرات لليهود فى فلسطين » مما أظهر — مرة أخرى — كيف كانت السياسة البريطانية ضعيفة أمام أقل ضغط خارجى . وصدر بيان آخر ، لإرضاء العرب ، يشير إلى مبدأ « القدرة الاستيعابية » ويتضمن فقرة حول قلق الحكومة البريطانية إزاء سياسة العمل التى يتبعها الصهاينة . وهذا الموضوع قد أصبح شائكاً بشكل متزايد بين العرب واليهود ، إذ وضعت الوكالة اليهودية مبدأ ينص على أنه لا يجوز استخدام غير اليهود فى كل المشروعات التى تتم تحت إشرافها وكانت الأيديولوجية الصهيونية تعتبر هذا

المبدأ الذى عرف باسم « غزو مجالات العمل » مقدساً ، فبدونه كان من الطبيعى أن يميل اليهود إلى القيام بالأعمال التى تحتاج إلى مهارات خاصة ، تاركين الأعمال اليدوية ليقوم بها العرب غير المتعلمين الذين يشكلون الأغلبية . وكان معنى هذا حرمان اليهود من ممارسة الأعمال اليدوية التى قيل إنها حيوية بالنسبة لبعثهم القومى والروحى . ولم تكن دوافع مبدأ « غزو مجالات العمل » من وجهة النظر الاقتصادية البحتة ، على قدر كبير من النبل والسمو — فقد كان الأمر ، كما رأته الحكومة البريطانية ، لا يعدو أن يكون محاولة من جانب العمالة اليهودية لطرد الجزء الأكبر من العمالة مما أثار قلقها ، وقلق قطاعات معينة من الصهاينة أيضاً .

وفى بداية الثلاثينيات من القرن الحالى أصبحت « مشكلة العمل » فى المرتبة الثانية بعد مشكلة الهجرة التى اكتسبت أهمية جديدة فجأة عندما بدأت ظلال الفاشية القاتمة تخيم على أوربا . وفى بداية عام ١٩٣٣ تولى أدولف هتلر مقاليد الحكم فى ألمانيا ، وتضمن كتابه كفاحى (صدر فى عام ١٩٢٥) خططه بالنسبة للأمة الألمانية ، ومنها ضرورة تطهيرها من كل الأجناس الدنيا ومن بينها اليهود . وقد يستطيع آخرون أن يتجاهلوا أو يتناسوا عنصرية النازيين الواضحةأما اليهود فلا يستطيعون هذا . وفى عام ١٩٣٢ تضاعفت الهجرة اليهودية إلى فلسطين التى لم يعد يعوقها شىء بفضل خطاب ماكدونالد، وفى العام التالى بلغ عدد المهاجرين قرابة ٢٩٫٠٠٠ يهودى معظمهم من ألمانيا وارتفع عددهم إلى ٤١٫٠٠٠ يهودى فى عام ١٩٣٤ ، أما فى عام ١٩٣٥ فبلغ ما يقرب من ٦٠٫٠٠٠ يهودى . وكانت أكبر موجة شهدها تاريخ الجنس البشرى بأسره من موجات الاضطهاد قد بلغت أقصاها . وبدت فلسطين فجأة لمئات الآلاف من اليهود ، ممن لم يسمع بعضهم عن الصهيونية ، الملجأ الآمن الوحيد . ودخل المئات من اليهود فلسطين بطريقة غير مشروعة وهم هؤلاء الذين تمكنوا من التسلل إليها خلسة لعدم وجود جوازات سفر لديهم .

وكان هؤلاء المهاجرون الجدد بلا استثناء أفضل تعليماً من العرب الذين

وجدوا أنفسهم يعيشون معهم جنباً إلى جنب . وكان كثير منهم ميسورى الحال إلى حد معقول ، ورغم أن المئات كانوا من المعدمين حينما وصلوا إلى فلسطين إلا أن معدل استثمار الأموال اليهودية فى فلسطين كان عالياً مما أتاح للجالية اليهودية مستوى معيشة أعلى بكثير من مستوى معيشة العرب . وقد أفاد قدوم هذه الثروات ، فى الواقع ، العرب كذلك الأمر الذى ارتفع بمستوى معيشتهم ولم يكن هذا سوى عزاء فاتر لهم . وكان من بين الحجج التى ساقها العرب إلى البريطانيين فى معارضتهم منح اليهود قدراً أكبر من حجمهم فى الشئون الفلسطينية ، مبدأ عادل وبسيط هو مبدأ « حكم الأغلبية » ولكن مع ازدياد الهجرة اليهودية بسرعة ، أصبح العرب يرون أغلبيتهم وهى تتناقص رويداً رويدا حتى تساوى عدد السكان اليهود مع عددهم وزاد عليه . وكان هذا ما تطلع أغلب الصهاينة إلى تحقيقه . وفى عام ١٩٣٦ انفجر استياء العرب وتفجرت مخاوفهم فقاموا بتمرد منظم كان فى معظمه فى بداية الأمر ضد اليهود ، ثم تحول ليصبح ضد البريطانيين بصورة متزايدة ووصل قادة حرب العصابات من الدول العربية الأخرى، وأعلن المفتى الإضراب العام الذى استمر ستة شهور . وكان رد بريطانيا على هذا إرسال لجنة تحقيق أخرى برياسة اللورد بيل . وقدم اللورد بيل تقريراً تاريخياً لا لأنه كان من أشمل الدراسات التى عالجت المشكلة ، بل لأنه كان أول من أوصى بالتقسيم ، فقد أوصى التقرير بإنهاء الانتداب فى أقرب فرصة مناسبة ، وبتقسيم فلسطين إلى دولة عربية مستقلة تنضم إلى مملكة شرق الأردن ودولة يهودية صغيرة مستقلة وذات سيادة .

وإذا عاد المرء بذاكرته إلى السنوات الأولى من القرن الحالى تبين كيف حققت الصهيونية الكثير . وكان اقتراح التقسيم هو اللحظة التى انتظرها هرتزل طويلا حيث رأى ما بذله من جهد طوال حياته يوشك أن يتوج بالنجاح . ولكن مع ازدياد تدهور موقف اليهود فى أوربا فى عام ١٩٣٧ رأى أغلب الصهاينة المنطقة التى خصصتها خطة بيل لليهود فى فلسطين غير كافية على الإطلاق (وهى أقل بكثير من مساحة إسرائيل الحالية) .

وبينما رفض العرب توصيات بيل رفضاً تاماً ، استقبلها اليهود بفتور إذ أنه على الرغم من موقف اللجنة المتعاطف أساساً مع الجالية اليهودية ، فقد أوصت اللجنة بفرض إشراف أكثر دقة على الهجرة ، واقترحت ألا يزيد عدد المهاجرين على ١٢٫٠٠٠ يهودى سنوياً ولمدة خمس سنوات (بشرط أن يخضع هذا دائماً لمبدأ قدرة الاستيعاب الاقتصادى) يعاد بعدها النظر فى الأمر مره أخرى .

وليس من الصعب تصور يأس اليهود وقنوطهم فى تلك اللحظة من تاريخهم فى فائدة دولة مصغرة واثنى عشر ألف مهاجر سنوياً عندما يكون مصير مئات الآلاف من البشر فى خطر ؟ وبدأت دول أخرى ، ومن بينها بريطانيا تفتح أبوابها أمام أعداد محدودة من اللاجئين ولكنهم لم يشعروا بحقهم فى الذهاب إلى أى مكان سوى فلسطين . وزاد هذا الشعور باليأس مواقف كافة الأطراف تشدداً . وبدأت وجهة نظر المتطرفين من اليهود ، التى تعارض كل تعاون مع البريطانيين ، تحظى بالتأييد . وألمح العرب فى الجانب الآخر أنهم قد يجدون أنفسهم مضطرين إلى الارتماء فى أحضان ألمانيا وقد كان المفتى مثلا على علاقات طيبة مع هتلر .

وفى ربيع عام ١٩٣٦ ، أصدرت الحكومة البريطانية ، تمشياً مع سياسة التهدئة التى انتهجتها فى أوربا ، كتاباً أبيض ضرب بتوصيات بيل عرض الحائط تماماً ، وأعلنت الحكومة أنه لن يكون هناك أى تقسيم لفلسطين ، وأن الهجرة اليهودية ستحدد بخمسة وسبعين ألف مهاجر على مدى خمس سنوات، لا يسمح بعدها لأى مهاجر بدخول فلسطين إلا إذا كان العرب على استعداد لقبوله .

وقدر عدد اليهود ، فى هذا العام بالذات ، الذين هددتهم القوانين الألمانية المعادية لليهود بما يقرب من ستمائة ألف يهودى . وشهدت فلسطين مظاهرات عنيفة ضد الكتاب الأبيض . وبدأ اتجاه جديد ينمو بين اليهود فى فلسطين جنباً إلى جنب مع شعورهم باليأس الذى لم يكن جديداً عليهم

وعندما نشبت الحرب مع ألمانيا فى عام ١٩٣٩ ، أعلن دافيد بن جوريون الذى كان يشغل منصب رئيس المكتب التنفيذى للوكالة اليهودية آنذاك « إننا أى اليهود — سنخوض الحرب إلى جانب بريطانيا وكأن الكتاب الأبيض لم يكن . . . » وأضاف عابساً : «كما سنحارب الكتاب الأبيض وكأن الحرب لم تكن . . » وكان هذا يعنى ، بين ما يعنيه أن بريطانيا حليفتهم لأن حربهم ضد النازية واحدة (وفى الحقيقة انضم كثير من يهود فلسطين إلى صفوف الجيش البريطانى خلال الحرب) ، ولكنه كان يعنى كذلك أن بريطانيا التى تخلت عن التزاماتها تجاه اليهود عندما كانوا فى أسوأ أوقات الشدة لا تخرج عن كونها عدواً لهم .

وفى أواخر الثلاثينات كان المجتمع اليهودى قد أصبح فعلا دولة وليدة ، وكانت تسمى بالعبرية «ييشوف» ومعناها الحرفى «مستعمرة» وإن كان لها من الخصائص الدائمة ماهو أكثر مما توحى به الكلمة الإنجليزية .

وتحولت المستعمرة أو « الييشوف » بعد عشر سنوات إلى دولة متكاملة تحددت جميع خصائصها الرئيسية . وارتفع مجموع سكان الييشوف فى عام ١٩٣٥ إلى ما يقرب من ٤٠٠٫٠٠٠ شخص ، وهو أقل بقليل من نصف عدد سكان فلسطين آنذاك . وكان للييشوف برلمانها الخاص ، ومجلس قومى ، وجيش سرى يتمثل فى الهاجاناه ، قدر له فى البداية أن يكون حرساً محلياً ولكنه تعدى هذا بكثير قبيل نهاية الانتداب . كما كان لها اتحاد نقابات عمال متقدم جداً « الهستدروت » ، ونظام اجتماعى وتعليمى ناجح . ووصف تقرير « بيل » الييشوف بأنها كانت ، على عكس المجتمع العربى فى فلسطين « متقدمة تعليمياً ، وديمقراطياً ، وعلى درجة عالية من الوعى السياسى » . ولكن الهوة بين العرب واليهود ، على حد قول التقرير ، أكثر وضوحاً مما كانت عليه فى المجال الثقافى. كانت اللغة العبرية ، وهى قريبة الشبه باللغة العربية من وجوه كثيرة قد أصبحت لغة «الييشوف» الدارجة منذ أوائل القرن الحالى ، ولكن رغم أن أدباً عبرياً كان بسبيل النمو والظهور ، فقد ظلت ثقافة الييشوف أوربية فى معظمها

ولم يربطها بالثقافة العربية القومية سوى القليل .

ورغم هذه الواجهة الأوربية لم يكن سكان اليبشوف يعتبرون أنفسهم أوروبيين . وذكر « بيل » فى تقريره أنه كان لديهم « وعى ذاتى قومى حاد» بشكل غير مألوف ، مما أطلق العنان لطاقات هائلة ساعدت على بناء المجتمع رغم أنها ولدت فيهم شعوراً بالغرور وجموحاً فى الطباع . وكانت الثلاثينات ، بشكل ما أحسن أوقات الصهيونية ، وهو الوقت الذى بدا فيه الواقع ، على الأقل فى فلسطين ، ورغم كل الفشل السياسى ، وكأنه قريب جداً من المثل الأعلى . فأصبحت تل أبيب مدينة مزدهرة ، وانتشرت المستعمرات الاشتراكية فى جميع أنحاء البلاد ولم تكن هناك صعوبة فى البحث عن مستوطنين لها . وكان سكان الكيبوتزات هم الملوك غير المتوجين فى « اليبشو » حيث كانت سبل حياتهم (على النقيض تماماً من حياة اليهود فى المنفى) شاهداً على أفضل وأبدع إنجازات اليهود الفلسطينيين . وكان سكان تل أبيب الذين يحتشدون فى عام ١٩٣٨ للاستماع إلى كونشرتات توسكانينى ، يشعرون بالفخر إزاء هؤلاء الفلاحين المخلصين ، ويروون بزهو قصص أساتذة الجامعات الذين تركوا أوربا ليصبحوا رعاة غنم فى الجليل . ولكن عندما استقرت الأمور فى إسرائيل أصبحت هذه المثالية الحالمة مثاراً للسخرية والتهكم . وعلى أية حال فإن هذه المثالية لم يكن لها فقط فى ذلك الوقت مغزى اقتصادى معين فى مجتمع يزخر بالعاملين فى كل المهن، لكنها كانت فى الوقت ذاته أمراً ضرورياً « للروح اليهودية » على حد قول الصهاينة الأول . فقد جاء اللاجئون من أوربا بنفوس مجروحة مكلومة ، وكانت أيدلوجية الكيبوتز نوعاً من البلسم لهم . وربما كانت « اليبشوف » فى ظاهرها مجتمعاً مثقفاً مفكراً ، ولكنه كان يخفى جوانب منه غير ناضجة ، كان من السهل أن تصبح مؤلمة وضارة . وعندما كان يحدث هذا ، كان الجموح والطاقة يأخذان اتجاها تدميرياً .

فى عام ١٩٢٥ ، أنشأ فلاديمير جرابوتنسكى حزباً سياسياً أطلق عليه اسم « المراجعيين » الذين كانوا يؤمنون بمد حدود الوطن القومى لتشمل فلسطين

كلها ، حتى ولو احتاج الأمر إلى اللجوء إلى القوة ، وظل المراجعيون ضمن الأقلية دائماً ، أما المجموعة السياسية التى كانت لها الأغلبية فكانت تضم الكتلة العمالية الهادئة نسبياً والتى شملت أحزاب الجناح اليسارى ، ويسار الوسط .

وزاد ضغط المراجعيين ومؤيديهم على الوكالة اليهودية لاتباع سياسة أكثر صلابة مع البريطانيين حول مسألة الهجرة ، مع ازدياد حدة الاضطهاد النازى . وعندما ازداد موقف بريطانيا صلابة فى أواخر الثلاثينيات كون المراجعيون منظمة سرية عرفت باسم « الأرجون » وقررت الأرجون — بعد فترة من الوقت وأمام عناد البريطانيين — استخدام الأساليب الإرهابية ضدهم. وفى الوقت نفسه ظهرت جماعة أخرى أكثر تطرفاً ، تتبع الأساليب نفسها وكانت هذه الجماعة قد انشقت على الأرجون وأطلقت على نفسها « مجموعة شتيرن » التى كانت تؤمن بأنه لا بد من محاربة جميع خصوم الدولة اليهودية بشراسة .

ولم يكن الخلاف بين هاتين المجموعتين من جهة والأحزاب الصهيونية الأخرى من جهة أخرى حول الأهداف أو الغايات . فلم يكن يخامر أى فرد منهم شك فى أن الهدف النهائى هو إقامة دولة مستقلة وذات سيادة خاصة بعد رفض مبدأ القومية الثنائية . كان السؤال المطروح متى ؟ وأعلنت المنظمة اليهودية هدفها صراحة فى اجتماع عقدته بالولايات المتحدة وهو إنشاء دولة يهودية فى فلسطين . وكان هذا ضمن ما عرف آنذاك ببرنامج بالتيمور لعام ١٩٤٢ . ولكن التصريحات لم تكن بكافية بالنسبة لأنصار مجموعة شتيرون وأرجون ، الذين زاد من مرارتهم عدم اكتراث بريطانيا الواضح بمصير اليهود الأوربيين الذين هلك منهم ستة ملايين فى معسكرات الاعتقال ، وكان وايزمان الذى قسم وقته بين بريطانيا وفلسطين ، والولايات المتحدة مازال ، يعتقد أن التعاون مع بريطانيا سيؤدى إلى أفضل النتائج فى النهاية ، وكان بن جوريون وهو على رأس الوكالة اليهودية يقف بين الفريقين المتعارضين ، متبعا — فى بداية الأمر — سياسة تتسم بالحفظ ، ولكن مع تدهور الوضع بدا وكأنه يميل إلى جانب المتطرفين من أنصار شتيرن وأرجون .

وكموجة عاتية بعد زلزال ، شهدت فلسطين أسوأ أوقاتها بعد عام ١٩٤٥ فقد بلغ الضغط على كل الأطراف المعنية بالمشكلة درجة كشفت عن أسوأ ما في هذه الجوانب . فقد قاسى اليهود مؤخراً أكثر من أى شعب آخر فى أى وقت من التاريخ . وكانت عشرات الآلاف ممن نجوا من اضطهاد هتلر ما زالت تنتظر فى معسكرات فى أوربا ، إعادة توطينها . أما البريطانيون فكانوا يخشون — وقد سيطرت عليهم اعتبارات الحرب الباردة — الإساءة إلى الرأى العام العربى ، تحسباً لما يمكن أن تقوم به روسيا بعد تأمين أوربا الشرقية ، من تحويل انتباهها إلى الشرق الأوسط .

وطلب الصهيونيون السماح لمائة ألف مهاجر بالدخول إلى فلسطين فوراً ، ولكن البريطانيين نظروا إلى طلبهم هذا من وجهة نظر سياسية وليس من وجهة نظر إنسانية . ولم يكن العرب فى الوقت نفسه ، على استعداد للتنازل عن شبر واحد بعد أن وجدوا فى مخاوف الغرب من روسيا سلاحاً للمساومة .

وأصبحت اعتداءات الإرهابيين أحداثاً شبه يومية تقريباً فى فلسطين ، وأدت الفظائع إلى مزيد من الفظائع والأعمال الوحشية حتى لم يعد بمقدور أى من الأطراف المعنية أن يخلى مسئوليته عما يحدث . وكان الصهاينة يعلقون آمالا كباراً على حزب العمال البريطانى ، الذى أصدر عدة تصريحات تأييداً لهم ولكن عندما تولى الحزب الحكم فى عام ١٩٤٥ ، رأى وايزمان فى أرنست بيفن وزير الخارجية آنذ. غير متعاطف ومن نوع جديد . فقد جمع بيفن بين عداء قديم للسامية ، وطباع فظة قاسية أحياناً مما أثار امتعاض وايزمان ، الذى اعتاد على التعامل مع سياسيين مهذبين من الطبقات العليا من أمثال بلفور . وتحتم على وايزمان الذى تعود فيما مضى على التعامل الودى مع الحكومة البريطانية أن ينتظر أن يسمح له المسئولون البريطانيون بلقائهم ، بل إنهم كانوا يرفضون لقاءه وسارت سياسة بريطانيا آنذاك فى طريق معاكس تماماً لأهداف الصهيونية فلم يسمح لمائة ألف مهاجر يهودى بدخول فلسطين وتقرر أن يستمر تطبيق نصوص الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ حتى يوجد حل للمشكلة .

ونجمت عن هذا حالة من العصيان والتمرد العلنى فى فلسطين ، فقتل فى عام ١٩٤٦ وحده ٧٣ جنديًّا بريطانيًّا ، فى حين بلغت الإصابات بين العرب واليهود ثلاثمائة إصابة تقريباً وفى الوقت ، نفسه استمرت عمليات الهجرة بطريقة غير مشروعة بوساطة «سفن الموت الصغيرة أو العائمات القديمة التى تكاد تطفح بمن فيها من البشر» كما وصفها آرثر كوستلر الأمر الذى كان يؤدى غالباً إلى حوادث مؤلمة عندما كانت الدوريات البريطانية تعترض طريق إحدى السفن وتعيد ركابها إلى أوربا أو تحتجزهم فى معسكرات فى قبرص .

وفى يونيه عام ١٩٤٦ ، قامت حكومة الانتداب بإجراء انتقامى عقيم لم يساعد على تهدئة الموقف عندما ألقت القبض على جميع زعماء الوكالة اليهودية باستثناء بن جوريون الذى كان فى باريس وقتذاك . ولم يمض أسبوعان حتى جاء الرد الانتقامى الحتمى عندما قام رجال «الأرجون» بنسف أحد أجنحة فندق الملك داود فى القدس، والذى كان مقرًّا لرياسة الجيش البريطانى مما أسفر عن مقتل ٩١ شخصاً بين يهودى وعربى وبريطانى .

وهز الحادث معظم اليهود فى فلسطين ، ولكن الإرهابيين كانوا قد تورطوا فى حرب فعلية ضد البريطانيين بدرجة كبيرة لم تجعل لتفكير المعتدلين من أبناء طائفتهم أى أثر عليهم . وكانت أحداث هذا الصيف المؤلم الوحشية بمثابة النهاية ، فقد تخلى البريطانيون عن أية محاولة لحفظ النظام فى فلسطين ، ولم يمض وقت طويل حتى اعترفوا بفشلهم رسميًّا للعالم كله .

وفشلت محاولة أخيرة لجمع الطرفين العربى واليهودى فى مؤتمر لندن فى نهاية عام ١٩٤٦ وبداية عام ١٩٤٧ ،وكان لا بدلها أن تفشل وأعلن بيفن فى فبراير عام ١٩٤٧ ، فى مجلس العموم أن الحكومة ستحيل الموضوع إلى الأمم المتحدة، وأضاف «وليس فى نيتنا — نحن — أن نوصى بأى حل معين» وسأله أحد أعضاء المجلس عما إذا كانت المسئولية الأدبية تفرض على الحكومة أن تقدم المشورة إلى الأمم المتحدة ، فكان جواب بيفن : إن هذا أفضل ما يمكننا القيام به » .

غير أن الأمر وصل بالبريطانيين إلى حد تخليهم التام عن مسئوليتهم، الأمر الذى كان يتناقض بشكل صارخ مع حماسهم ولهفتهم عند اضطلاعهم بهذه المسئولية منذ ثلاثين عاماً خلت . وعمت فلسطين فوضى حقيقية ، وشكل العرب مجموعات تخريبية فى حين كان بوليس فلسطين البريطانى يميل إلى عدم التدخل كلما حدث صدام بين العرب واليهود ، الأمر الذى أتاح لهذا الدمار أن يستمر دون عائق . لقد خلفت سنوات الحرب الست آثاراً مفزعة ، حتى بدا وكأنها قد أنهكت أعصاب الحكومة البريطانية كذلك ، لدرجة أن إحالة المشكلة إلى الأمم المتحدة لم تتم بطريقة نظيفة . ففى الوقت الذى أرسلت فيه الأمم المتحدة لجنة خاصة إلى فلسطين عرفت باسم (لجنة فلسطين) لمحاولة البحث عن حل للمشكلة كانت الحكومة البريطانية ما زالت مترددة — رغم تصريح بيفن فى مجلس العموم — بين أن تسلم المشكلة برمتها فعلا إلى الأمم المتحدة أو أن تكتفى باستشارة المنظمة الدولية .

وأوصت اللجنة الخاصة بفلسطين كما سبق أن أوصت لجنة « بيل » بضرورة تقسيم فلسطين إلى دولتين ذات سيادة إحداهما عربية والأخرى يهودية . وتضمن القسم اليهودى ، رغم أنه لم يكن كبيراً كما كان يأمل الصهاينة، صحراء النقب على الأقل ، وهذا أكثر مما تضمنه أى مشروع آخر للتقسيم؟ . ولم يرحب بمشروع اللجنة الخاصة سوى اليهود فقد عارضه البريطانيون فى حين أعلن العرب أنهم سيبدءون الحرب إذا فرض المشروع عليهم ، وكان من الممكن أن يندثر كغيره من المشروعات السابقة، لولا أن الأمم المتحدة صوتت فى ٢٩ نوفمبر على المشروع ، وأيدته كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وكان للدولتين العملاقتين أثرهما فى حصول المشروع على أكثر من ثلثى الأصوات المطلوبة لإقراره، رغم أن كلا منهما كانت لها دوافعها المختلفة . وهكذا وبعد مرور خمسين عاماً على انعقاد أول مؤتمر صهيونى ، وعلى ما تكهن به هرتزل ، قرر العالم أنه لا بد من قيام دولة إسرائيل .

وحالما عرفت نتيجة التصويت فى الأمم المتحدة ، هاجم العرب اليهود

فى كل المدن الرئيسية فى فلسطين ، وكان هذا نذيراً لما سيحدث فيما بعد . وأعلنت بريطانيا فى شهر ديسمبر أنها ستنهى انتدابها على فلسطين فى ١٥ مايو عام ١٩٤٨ ، ولكنها لم تحاول خلال الشهور القليلة المتبقية من حكمها فى فلسطين أن تعيد أى نوع من النظام إلى البلاد رغم استمرار حكومة الانتداب فى أعمالها الروتينية بشكل غير طبيعى ، إذ ظلت المكاتب الحكومية تعمل ، وظلت دوريات البوليس تجوب الشوارع . ولم يسمح لأية سلطة محلية أن تحل محل البريطانيين تمهيداً للحظة خروجهم من البلاد ، لأنه لو حدث هذا لكان على البريطانيين أن يقرروا أى السلطتين يتم التعامل معها وتسليمها مقاليد الحكم بالبلاد ، وكان هذا قبل كل شىء السؤال الذى فشلوا فى الإجابة عليه خمسة وعشرين عاماً . وأبدى بعض أعضاء الحكومة البريطانية ، وكذلك عدد من رجالات الجالية اليهودية فى فلسطين شكهم فى جدية تهديدات العرب بالحرب ، وتردد أن الملك عبد الله ملك شرق الأردن كان يؤيد الاتفاق مع اليهود ، ولكن آراءه لم تكن مقبولة إطلاقاً من جانب غالبية العرب ، كما أثبتت الأحداث فيما بعد (إذ اغتاله أحد العرب المتطرفين فى عام ١٩٥٢) . وعلى أية حال ففى عام ١٩٤٨ لم يعد للتفاؤل أى أساس .

إعلان الاستقلال والحرب ١٩٤٨ – ١٩٤٩

كان مقرراً أن ينتهى الانتداب على فلسطين فى منتصف ليلة ١٤ مايو عام ١٩٤٨ ، وهكذا كان الرابع عشر من مايو وليس الخامس عشر منه اليوم الهام الذى بدأت فيه رسميا حياة إسرائيل . فى الساعة التاسعة من صباح ١٤ مايو غادر حيفا آخر مندوب سام بريطانى . ولما كان ذلك اليوم يوم جمعة تبدأ مع غروب شمسه العطلة الدينية اليهودية (يوم السبت) فقد عقد بن جوريون فى الساعة الرابعة بعد الظهر جلسة خاصة لمجلس الشعب فى متحف الفن الحديث . وأعلن أمام ستة وثلاثين ممثلا عن أحزاب الييشوف السياسية كلها إنشاء

« دولة يهودية فى أرض إسرائيل هى دولة إسرائيل » وأشار الإعلان الذى تلاه إلى حق جميع اليهود فى الهجرة إلى إسرائيل ووضع المبادئ التى ستقوم على أساسها الدولة الجديدة وهى الحرية ، والعدالة ، والسلام والولاء لميثاق الأمم المتحدة . وتقرر أن يتولى مجلس دولة مؤقت تمثل فيه جميع الأحزاب الحكم فى البلاد حتى تجرى الانتخابات .

وكان وايزمان هو الشخصية الوحيدة التى لم تحضر هذا الاجتماع فى المتحف ، وانتخبه المجلس أول رئيس لدولة إسرائيل . ولكن أعداءه حاولوا — فيما بعد — استغلال حقيقة وجوده بعيداً عن إسرائيل فى ذلك اليوم الحاسم (وما كان رجل بارز مثل وايزمان لينجو من وجود أعداء له خاصة وأن البيشوف كان مسرحاً لا لخصومات ومنافسات طبيعية فقط ، بل ولاختلافات حقيقية فى المبادئ أيضا) . وكان وايزمان ، فى حقيقة الأمر ، فى الولايات المتحدة يحاول الحيلولة دون حدوث تغير فى موقف أمريكا ، فى آخر لحظة ، إزاء مسألة الاستقلال اليهودى . واستطاع وايزمان (وكان معتل الصحة فى ذلك الوقت) . بعد مفاوضات طويلة وشاقة الحصول على تأييد ترومان للدولة الجديدة ، فكانت الولايات المتحدة أول دولة تعترف رسمياً بإسرائيل بعد ساعات قليلة من إعلان مولدها .

واحتشدت الجماهير خارج المتحف فى تل أبيب أثناء انعقاد مجلس الشعب ، وأثارت أنباء إعلان قيام دولة إسرائيل فرحاً شديداً ، فظل الناس يرقصون فى الشوارع طول الليل. ولكن بينما كان بن جوريون يلقى حديثه الأول فى الأذاعة كرئيس لحكومة الدولة الجديدة فى صباح يوم ١٥ مايو من سنة ١٩٤٨ كانت الجيوش العربية قد بدأت فعلا هجومها الجوى عليها . وكما سبق أن أعلنوا قامت الجيوش النظامية لدول الجامعة العربية (مصر وشرق الإردن ، والعراق ، وسوريا ، ولبنان) لغزو إسرائيل . وكان مجموع القوات العربية المشتركة ما يقرب من ٧٠٠٠٠ رجل (كان العدد الموجود على الورق أكبر من هذا) تساندها أعداد وفيرة من الطائرات والمدافع . وكان يقف فى مواجهتهم الهاجاناه التى كانت تضم قوة مختارة تعدادها ٣٠٠٠ جندى (عرفت باسم

بالماخ) ، وجيش ميدانى قوامه ١٠٫٠٠٠ مقاتل ، وحرس محلى يضم كل شخص بالغ من سكان اليبشوف تقريباً ، وبضع كتائب للشباب . وكان مجموع كل هؤلاء ٥٠٫٠٠٠ رجل تقريباً ، كان ربعهم فقط مزوداً بالسلاح . فى حين قدمت الأرجون وشتيرن قرابة ألف رجل مدرب ومزود بالسلاح . وهكذا بدأت إسرائيل حرب التحرير .

وكانت هناك ثلاث مراحل من القتال ، تخللتها هدنتان فرضتهما الأمم المتحدة . وانتهت الحرب فى عام ١٩٤٩ ، عندما نجح الدكتور رالف بانش وسيط الأمم المتحدة فى فلسطين ، فى وقف إطلاق النار ، ووقعت إسرائيل اتفاقيات هدنة مع جميع الدول العربية المعنية فيما عدا العراق وبانتهاء الحرب أصبح شكل إسرائيل على ماهو عليه الآن . فقد زادت مساحتها كثيراً عما اقترحته اللجنة الخاصة بفلسطين ولكن حدودها ظلت مكشوفة ومهددة فى أماكن كثيرة ، نتيجة لما تطورت إليه الأمور خلال الحرب . وكانت هذه هى الحال بالنسبة للقدس وما حولها . إذ كانت تمتد الحدود عبر المدينة والقرى الموجودة بضواحيها ، وذلك بسبب فشل اليهود فى الاستيلاء على الجزء القديم من المدينة . كذلك تضيق مساحة السهل الساحلى بحيث لا تزيد المسافة بين خط الحدود والبحر فى بعض المناطق على عشرة أميال .

إذن كيف استطاعت إسرائيل أن تنتصر ؟ إن قصة الحرب تتميز أول ما تتميز بالذكاء حيث لعب الدهاء والروح المعنوية لكل فرد ، أو ما يسميه الإسرائيليون « بسلاحهم السرى » دوراً فى قلب الميزان فى مواجهة صعوبات بدت وكأنه من المستحيل التغلب عليها . وقد زعزع ثقة الزعماء العرب بأنفسهم فشلهم فى الهجوم فى مايو عام ١٩٤٨ ، ومنذ ذلك الحين لم تدع إسرائيل زمام المبادرة يفلت منها إلا نادراً . وكانت إسرائيل تحمل بين يديها الورقة الرابحة فى ذلك الصراع الذى كان صراعاً نفسياً كما كان صراعاً عسكرياً .

وكانت الحرب حاسمة وأدت إلى استمرار بقاء إسرائيل ، ولكن العرب ، رغم اضطرارهم إلى الانسحاب ، رفضوا الاعتراف بها أو الوصول إلى تسوية

سلمية نهائية معها ، وفرضوا عليها حصاراً اقتصادياً صارماً . وهكذا لم تحل المشكلة الفلسطينية . وعلاوة على هذا فقد حدث تطور جديد ، بعد عام ١٩٤٨ ، ساعد على إبقاء المشكلة حيـــة بصـــورة حادة ذات طابع خاص .

ففي نهاية عام ١٩٤٨ ، كان أكثر من نصف مليون عربي قد تركوا منازلهم في إسرائيل ولجئوا إلى الدول العربية المجاورة . واستقرت أقلية منهم فيها ، وبدأت تزاول أعمالا جديدة . أما أغلبيتهم الساحقة فقد وضعوا في مخيمات ما زالوا يعيشون فيها هم وسلالتهم حتى الآن . ورفضت حكومات الدول العربية المعنية ، منذ البداية ، تحمل مسئولية النكبة التي حلت بهؤلاء اللاجئين ، بل حاولت الاستفادة منها دعائياً ، تاركة عبء إيوائهم يقع على عاتق الأمم المتحدة وعدة منظمات خيرية . ولم ينته الجدل بعد حول ما إذا كان هؤلاء اللاجئون قد تركوا إسرائيل بمشيئتهم بعد خروج معظم قادتهم منها ، أم أن الإسرائيليين أجبروهم على ذلك . ويمكن القول بصفة عامة : بأن كلا من هذين الرأيين يتضمن قدراً من الحقيقة . فقد حاولت الوكالة اليهودية خلال المرحلة الأولى من القتال منع العرب من الرحيل ، ولكن زعماءهم شجعوهم على مغادرة فلسطين ، ولم تكن الوحشية التي لا مبرر لها والتي اتسم بها القتال لتغريهم بالبقاء ، ونتج عن هذا كله أن كانت هناك ، منذ البداية حركة نزوح بين اللاجئين . وقبيل نهاية الحرب عمد اليهود إلى تشجيع العرب على مغادرة البلاد ، فقد كان على إسرائيل أن تستقبل خلال العامين التاليين أكثر من ٦٨٠،٠٠٠ مهاجر وكانت المسألة ببساطة مسألة توفير مكان لاستيعاب كل هؤلاء . وربما يجدر بنا أن ننظر إلى الحل القاسي الذي طبقه اليهود في إطار السنوات العشر التي سبقت هذا . فقد عاني اليهود من فظائع وأهوال عديدة لا تمت إلى الإنسانية بصلة ، أما في فلسطين فقد ازدادت المشاعر حدة لفترة طويلة بحيث أصبح من الصعب على إسرائيل التخلي عن هذا المسلك فجأة . ويمكن القول بأن وعد بلفور ، ومعسكرات الإبادة الألمانية قد زرعت

بذور مشكلة اللاجئين .

وقد عرضت إسرائيل ، بعد إنشاء الدولة تقديم بعض التعويضات إلى اللاجئين العرب ، ولكنها أصرت على أنه لا يمكن تسوية القضية ككل كما يجب، إلا فى إطار تسوية سلمية شاملة (هذا بالرغم من قرارات الأمم المتحدة المتكررة التى تدعو إسرائيل إلى إعادة اللاجئين أو تعويضهم تعويضاً كاملا) . وأصرت الدول العربية على أن يكون حل مشكلة اللاجئين شرطاً سابقاً لأية مناقشة أوسع . وهكذا وصلت الامور إلى طريق مسدود تماما .

الدولة

بلغ تعداد سكان إسرائيل ، فى نهاية عام ١٩٤٩ زهاء مليون نسمة (بما فى ذلك ١٥٠,٠٠٠ من غير اليهود معظمهم من العرب) . وكانت النقب وما زالت غير آهلة بالسكان تقريباً فيما عدا قلة من المستعمرات الصغيرة المتناثرة . وكان يربط العاصمة القدس ، التى حوصرت أثناء الحرب ، بباقى البلاد طريق وعر يخترق تلالا جرداء مقفرة . وظهرت مزارع موالح جديدة على طول الساحل ولكن صادارت الموالح ، مصدر العملات الأجنبية الرئيسى فى البلاد ، هبطت بنسبة الثلث منذ عام ١٩٣٨ . وانتشرت الكيبوتزات بشكل ضخم فى السنوات التى سبقت عام ١٩٤٨ مباشرة ، ورغم هذا كانت هناك مساحات شاسعة من الأرض غير مستصلحة . وكانت البلاد بحاجة إلى الوقت والمال لكى تقف على قدميها . وبدأت فى الحصول على الأموال تدريجياً عن طريق المساعدات الأمريكية ، والقروض اليهودية من الخارج ، ثم من ألمانيا عندما وقع البلدان فى عام ١٩٥٢ اتفاقية التعويضات التى وافقت ألمانيا بمقتضاها على تقديم بعض التعويضات المادية عن خسائر اليهود الأوربيين فى عهد المذابح النازية . ولكن لم يكن لديها متسع من الوقت، فقد واجه المشردون من أوربا ، ومن بعدهم اللاجئون من منطقة الشرق الأوسط والدول العربية الإفريقية ، الحكومة بنوع جديد من المهاجرين ، فقراء وغير متعلمين ،

ولم يكن أمامهم على أية حال سوى الاعتماد على الدولة كلية . ولم يكن هناك وقت كاف لإعداد أى شيء أكثر من خطة مؤقتة لاستقبالهم فى ميناء حيفا . وفحصهم طبياً ، ثم وضعهم فى معسكرات مؤقتة حتى يمكن إقامة منازل دائمة لهم . وقسمت البلاد إلى مناطق للتنمية ، وسارت عملية البناء سريعاً ، بل كانت سريعة جداً فى بعض الأحيان لدرجة أثرت على كفايتها . وكانت الخطة تتمثل فى بناء قرى جديدة حيثما يستطيع المهاجرون العمل فى استصلاح الأراضى حتى تتم تنمية الصناعات الخفيفة،واستغرق الأمر عشر سنوات قبل أن يختفى آخر معسكر مؤقت « معباراه » كما كان يطلق عليه بالعبرية .

وفى الوقت نفسه واجهت إسرائيل مشكلة أخرى لها نفس الأهمية وهى مشكلة الأمن . فقد ساد السنوات الأولى التى أعقبت إنشاء الدولة نوع من الاستقرار النسبى فى مجال العلاقات بين العرب وإسرائيل ويرجع الفضل فى هذا إلى حد كبير إلى اتفاق الدول الغربية على تحديد مبيعات الأسلحة لكلا الطرفين . فطبقاً للتصريح الثلاثى الذى اشتركت فى إصداره فى عام ١٩٥٠ كل من فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة اقتصر بيع الأسلحة إلى إسرائيل والدول العربية على الأنواع التى يستلزمها الأمن الداخلى أو الدفاع المشروع عن النفس مع مراعاة وجود توازن فى مبيعات الأسلحة لكل من الطرفين . ولم يخف العرب ، الذين ظلوا على رفضهم قبول وجود إسرائيل ، هدفهم النهائى وهو تدميرها ولكنهم لم يحاولوا القيام بأية حركة منظمة فى هذا الاتجاه . ومع هذا فقد لجئوا إلى عمليات التسلل على نطاق ضيق لإزعاج إسرائيل ، التى لم تسمح لنفسها بعامة بأن تنزلق إلى توجيه ضربات انتقامية وإنما اكتفت بتقديم الشكاوى إلى الأمم المتحدة .

وعلى أية حال لم يستمر هذا الهدوء النسبى طويلا ، فمع تحسن الوضع الاقتصادى فى إسرائيل ببطء وانقضاء أسوأ فترات التقشف التى مرت بها ، تحول الابتهاج الذى ساعدها على تخطى تلك السنوات الأولى إلى نوع من الضيق أو اليأس فى الوقت الذى لم يحدث فيه تحسن مماثل فى أوضاع الأمن .

وشنت إسرائيل فى فبراير عام ١٩٥٥ غارة انتقامية ضخمة على قطاع غزة رداً على عدد من الغارات التى قام بها المتسللون المصريون . واعتبرت إسرائيل هذه الغارة حركة دفاعية ، ووسيلة لتلقين العرب درساً ، وإرغامهم على إيقاف التسلل ولكن من السهل أن يختلط الأمر بين ما هو دفاعى وما هو عدوانى ،وأصاب الفزع المصريين من جراء ضخامة حجم الانتقام الاسرائيلى ولم يأت الخريف حتى كان جمال عبد الناصر ، رئيس جمهورية مصر ، قد وقع صفقة للأسلحة مع تشيكوسلوفاكيا (ومن سخرية القدر أنها هى التى قامت — قبل ذلك بخمس سنوات — بمساعدة إسرائيل أكثر من أية دولة أخرى وذلك بتزويدها بالسلاح خلال حرب التحرير .) ومنذ ذلك الحين ، وبعد تدخل الكتلة الشرقية ، اختل تماماً التوازن الدقيق الذى كان يتحكم فى عملية إمداد المنطقة بالسلاح . وتوجهت إسرائيل إلى فرنسا طلباً للسلاح ، وأسعد فرنسا الاستجابة لطلبها (فقد كانت تخوض حرباً مع العرب فى الجزائر حيث كانت تحوم شبهاتها حول قيام ناصر بإثارة المتاعب هناك) . وعندئذ بدأ سباق حقيقى للتسلح بين الطرفين وزادت حدة التوتر على طول حدود إسرائيل واتخذت عمليات التسلل العربى شكل الغارات الفدائية التى كانت تنظم فى مصر أو الأردن وكان جيش إسرائيل يقوم فى أغلب الأحيان بالرد على هذه الغارات بشن غارات ضخمة على مركز بوليس ، أو قرية بأسرها .

وأثناء هذا نشأ توتر جديد على المستوى الدولى . وضع إسرائيل سريعاً فى مأزق أكثر خطورة ،فقد قام ناصر فى شهر يولية عام١٩٥٦ بتأميم قناة السويس وكان هذا يعنى بالنسبة لبريطانيا انتهاء سيطرتها على شركة قناة السويس ، وتعرض إمداداتها من بترول الشرق الأوسط للخطر ،وزاد من حدة تصميم بريطانيا على ألا تفلت مصر من العقاب على عمل اعتبرته من أعمال القرصنة ، العداء الشخصى بين إيدن وناصر . وأصبح النزاع بين بريطانيا ، بفضل تشجيع الفرنسيين الذين لم يشعروا بأى حب نحو ناصر ، ثأراً شخصياً حيث قرر إيدن ضرورة التخلص من الزعيم المصرى . وأعدت بريطانيا وفرنسا

الخطط العسكرية لغزو مصر ، ولكن كان عليهما البحث عن حجة أفضل، حيث لم يكن تأميم القناة جريمة فى نظر القانون الدولى . وهنا جاء دور إسرائيل .

وأثار تدهور الموقف على حدود إسرائيل الجدل المعتاد — هل تقوم إسرائيل بتلقين العرب درساً لا ينسونه ، وذلك بتوجيه ضربة ساحقة إليهم ، أم أن هذا سيزيد الموقف سوءاً على المدى الطويل، وكان بن جوريون ، رئيس الوزراء يصرح فى العلن بأن إسرائيل لن تبدأ بشن حرب وقائية فى حين كان يفكر فى الخفاء بطريقة مختلفة . وكان قد خاطر بسمعته منذ البداية على أساس انتهاج سياسة عدم القبول بالحلول الوسطى مع العرب إذ كانت الغارة على قطاع غزة عام ١٩٥٥ بقرار منه .

وكان الرأى العام فى إسرائيل قد وصل إلى درجة توقع معها ما هو أكثر من الخطب الرنانة وتقديم الشكاوى إلى الأمم المتحدة ، ولكن كان من المستحيل التحرك ضد العرب قبل أن تجد إسرائيل حليفاً لها . وأرسل بن جوريون سراً بمبعوثين هما موشى ديان رئيس هيئة الأركان وشيمون بيريز من وزارة الدفاع ، إلى باريس للتشاور مع الفرنسيين . وربما بدا التوافق الغريب فى الأهداف ، أى الحرب ضد مصر والقضاء على نظام حكم ناصر ، للدول الثلاث بريطانيا وفرنسا وإسرائيل وكأنه هدية من السماء ، وتصوروا الخطة التى وضعوها خالية عملياً من كل الأخطاء والحماقات، وكان هذا بطبيعة الحال الشيء الوحيد الذى افتقرت إليه . فقد انتهت أزمة السويس ، بالفوضى والمهانة . وما زالت الدول الثلاث تنكر رسمياً تواطؤها معاً . ولكن بمرور الوقت أصبح من الواضح تماماً أن الخطة كانت تتطلب أن تقوم إسرائيل بالهجوم على مصر فى حين تقدم لها فرنسا الحماية الجوية والبحرية . وعند ذلك توجه فرنسا وبريطانيا إنذاراً للطرفين المتحاربين بإيقاف القتال ثم تتدخلان عسكرياً بحجة تأمين القناة وإن كان الهدف الحقيقى هو استعادة سيطرتها عليها وإسقاط ناصر.

ونفذت المرحلة الأولى طبقاً للخطة الموضوعة فى ٢٩ أكتوبر بدأت إسرائيل

حملة سيناء حيث غزا الجيش الإسرائيلى مصر ونجح فى إرغام الجيش المصرى على التراجع غرباً . وصدر فى اليوم التالى الإنذار الأنجلو فرنسى ، ولم تمض اثنتا عشرة ساعة حتى بدأت فرنسا وبريطانيا هجومهما الجوى على مصر ويبدو أن الحلفاء الثلاثة قد نسوا أنهم لا يعملون فى فراغ . فقد مضى الوقت الذى كانت تستطيع فيه القوى الاستعمارية تجاهل العالم ، وإرسال سفنها الحربية حيثما تشاء . واجتمع مجلس الأمن بعد بدء الهجوم الإسرائيلى بساعات قليلة . وأجمعت روسيا والولايات المتحدة على إدانة الهجوم الإسرائيلى ، وعلى الرغم من استخدام فرنسا وبريطانيا حق الفيتو ضد مشروع القرار الأمريكى الذى يطالب بانسحاب إسرائيل ، فقد أبطلت الجمعية العامة للأمم المتحدة بعد يومين هذا الفيتو وأصدرت قراراً يدعو إلى وقف إطلاق النار فوراً ، وضرورة انسحاب القوات الإسرائيلية إلى خطوط هدنة ١٩٤٨ . كانت إسرائيل فى الواقع قد أكملت فى هذا اليوم بالذات هزيمة جميع القوات المصرية فى شبه جزيرة سيناء وقبلت كل من مصر وإسرائيل قرار وقف إطلاق النار ، مما كشف عن حماقة الخطة الأنجلو — فرنسية كلها ، إذ لم يتم إسقاط قوات المظلات المتحالفة فى منطقة القناة ، لتفصل بين الفريقين المتحاربين اللذين أوقفا القتال بالفعل ، إلا بعد أن أصبح قرار وقف إطلاق النار سارى المفعول .

وتعرض الشركاء الثلاثة فى الحرب ، خلال الأسابيع التى أعقبت هذا ، إلى عملية إذلال دبلوماسى ، فقد أوقفت العمليات العسكرية الأنجلو — فرنسية بعد بدئها بقليل . وبينما بقى مركز ناصر قوياً كما كان دائماً ، كان فشل خطة إيدن يعنى نهاية حياته السياسية . وظل الرأى العام فى إسرائيل مواليا لبن جوريون حتى خلال انسحاب الجيش المشين من سيناء . ولكن كان لا بد أن يتحول ضده فى النهاية، بعد أن أخر نجاح الحملة عسكرياً هذا التحول إذ أخفى فشلها الدبلوماسى ، لبعض الوقت .

إذن ماذا استفاد الإسرائيليون من الحرب ؟ كانت أهدافهم متنوعة ولم يتحقق منها شيء . كانوا يريدون إحباط هجوم مصرى ، والقضاء على

قواعد المخربين فى قطاع غزة ، ورفع الحصار العربى عن خليج إيلات، بل كانوا يريدون كذلك ضم جزء من الأراضى المصرية ، قبل أن يحقق استنكار العالم أثره الكامل ، على أن يبرزوا ادعاءاتهم بنصوص من التوراة ، ولكن عندما جاء وقت الحساب النهائى تبين أن اسرائيل لم تحقق تقريباً شيئاً من أهدافها وكان كل ما حققته هو أنها استولت على كميات ضخمة من الأسلحة المصرية واضطرت مصر إلى رفع الحصار حول خليج إيلات ، والسماح للسفن الإسرائيلية بالمرور فيه ، وكانت هذه خطوة بالغة الأهمية بالنسبة لتجارة إسرائيل مع أفريقيا والشرق الأقصى . وفى مقابل هذا كان على إسرائيل أن تتحمل تكاليف الحرب الباهظة اقتصادياً وأن تواجه قبل كل شيء الضرر البالغ الذى لحق بموقفها فى نظر العالم . فقد ضبطت متلبسة بارتكاب عدوان صارخ قامت فيه بدور مخلب القط لدولتين استعماريتين ولم يكن هذا بأنسب صورة يمكن أن تظهر بها أمام الدول الأفرو آسيوية الحديثة الاستقلال . ربما كان طريق التجارة بينها وبين هذه الدول قد أصبح مفتوحاً ولكن كان عليها أن تبرر موقفها وتفسره تماماً قبل أن تستفيد من هذا الوضع وظلت أوضاع الأمن الداخلى على ما هى عليه دون تغيير أساسى وإن طرأ عليها تحسن بسيط حيث تضاءل عدد غارات الحدود . ولم تخفف الحرب من حدة مواقف العرب فى حين ترك التحول الكامل فى موقف إسرائيل أثناء الحرب ، من لحظة الانتصار إلى لحظة الانسحاب — ترك البلاد فى حالة من الاضطراب وخيبة الأمل بعيدة كل البعد ، كما كانت دائماً ، عن روح التراخى والتسوية. وهكذا استمر الموقف بين الطرفين على ماكان عليه دون حل .

وتحسن الموقف على الحدود فى الفترة التى أعقبت حملة سيناء مباشرة فلم تشهد الحدود المشتركة مع مصر سوى القليل من غارات المتسللين . ولكن الموقف على حدود إسرائيل الشرقية قد تدهور مرة أخرى فى منتصف الستينيات . كان قد تولى الحكم فى سوريا حكم يسارى ضعيف بدا عازماً على استخدام إسرائيل كوسيلة لتحويل الأنظار عنه ، وزادت الحوادث سوءاً بصفة مستمرة

وتعددت أكثر مما مضى ، وغالباً ما كانت تنشب بسبب النزاع حول المنطقة المنزوعة السلاح على الحدود السورية . واتسم رد فعل إسرائيل بصفة عامة بالتحفظ إذ لم تقم غير مرة واحدة بمهاجمة قرية فى الأردن وليس فى سوريا بأسلوب ما قبل سيناء بدعوى أنها تأوى قوات منظمة التحرير الفلسطينية الإرهابية المعادية لإسرائيل . وراجت شائعات بعد ذلك ، فى بداية صيف عام ١٩٦٧ حول هجوم إسرائيلى كبير هدفه وضع حد نهائى لا عتداءات سوريا الحقيرة ، وادعى الاسرائيليون أن لم يكن لهذه الشائعات ، التى روجتها مصر أو روسيا ، أى أساس من الصحة . ومهما كانت حقيقة هذه الشائعات فقد أمر ناصر فى مايو ١٩٦٧ ، ربما رغبة فى إحباط هذا الهجوم ، وربما عن دوافع أقل نزاهة ، بسحب قوات الأمم المتحدة التى رابطت فى سيناء منذ عام ١٩٥٦ ، وحرك حشوداً ضخمة من قواته صوب حدود إسرائيل ، وأغلق خليج إيلات .

وأعلنت كل من بريطانيا والولايات المتحدة صراحة أنها تعتبر هذا تصرفاً عدوانيًّا . ولكنهما بعد إصدار تصريحات بهذا المعنى ، حاولتا بذل كل جهد ممكن لمنع إسرائيل من إشعال الحرب . وعاد أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل ، من رحلته إلى واشنطن حيث ذهب لمعرفة إلى أى حد تستطيع إسرائيل الاعتماد على التأييد الأمريكى ، صفر اليدين تقريباً ، ولم تشأ الولايات المتحدة ، بسبب تأييد الروس لناصر أن تجازف باتباع سياسة موالية لإسرائيل علناً ، رغم أن العالم كله فى الواقع كان يعرف أنه إذا تعرض وجود إسرائيل للخطر فلن يكون أمام الولايات المتحدة من اختيار سوى التدخل .

ولم يشعر الناس فى إسرائيل بأن هذا شىء مؤكد ومضمون ، ولم يروا سوى الحلقة وهى تضيق حولهم . ورغم ما تردد من حديث ، بعد الخطوات الأولى التى اتخذها ناصر ، حول حق إسرائيل فى اعتبار هذه الخطوات سبباً ومبرراً للحرب ، فقد أدرك كل فرد ، عندما وقع ناصر اتفاقية الدفاع المشترك مع الأردن فى نهاية شهر مايو ، أنه لم يعد هناك مفر من الحرب . وسيطر شعور جديد تماماً على البلاد ، فقد كان جديداً بالنسبة لإسرائيل إن لم يكن جديداً

بالنسبة لجميع سكانها ، كان شعوراً باليأس وبأن النهاية قد دنت أخيراً .
ويمكن لنا أن نتبين كيف كان انفعال الناس فى إسرائيل فى هذه اللحظة غير عادى من الطريقة التى انقلب بها بين ليلة وضحاها إلى تفاؤل شديد عندما انضم إلى الحكومة وزير جديد . ففى بداية يونية قام ليفى أشكول رئيس الوزراء وهو يشعر بأن حكومته أضعف من أن تعالج الأزمة (إما بالدخول فى حرب أو تفاديها فى وقت كان الضغط الشعبى من أجل اعلان الحرب بالغ القوة) بتوسيع قاعدة حكومته الائتلافية بحيث أصبحت تضم ممثلين عن كافة الأحزاب تقريبا باستثناء أقصى اليسار وكان من بينهم موشى ديان بطل حملة سيناء ، الذى عينه أشكول وزيراً للدفاع . وتنفس سكان إسرائيل جميعاً الصعداء (وهم ليسوا عادة من أنصار عبادة الأبطال) حتى من كان منهم يعتبر ديان وكل ما يرمز إليه فى وقت آخر مجرد لعنة . وساد شعور لا منطقى بأنه لو تحتم على إسرائيل أن تخوض الحرب بمفردها الآن فسيكتب لها النجاح .
ولم يكن هناك من يحلم بمدى النجاح الذى تحقق . فقد أخذ الهجوم الإسرائيلى فى صباح يوم الخامس من يونيه المصريين على غرة وكان مفاجأة كاملة لهم ، رغم حمى الحرب التى سادت مصر ، والاستعدادات التى قامت بها ، وفى خلال ثلاث ساعات من بدء الهجوم تم تحطيم ثلاثمائة طائرة مصرية ، دمر معظمها وهو رابض على الأرض . ولم يبق أمام الجيش المصرى الذى أحسن تزويده بالأسلحة الروسية ، وإن افتقر إلى التدريب الكافى ، فرصة بعد تدمير غطائه الجوى ، فانسحب نحو قناة السويس بعد أن منى بخسائر فادحة فى الأرواح وتكررت نفس القصة مع الأردن ، حيث تعرض جيشها للفناء عندما هاجم إسرائيل فى القدس ، ومع السوريين الذين أرغموا على الانسحاب من المرتفعات التى تطل على الجليل والتى كثيراً ما استخدموها فى قصف المستعمرات الإسرائيلية . وأصبحت إسرائيل الآن سيدة على منطقة تبلغ مساحتها خمسة أضعاف مساحة إسرائيل ذاتها . وإذا أخذنا الناحية العددية وحدها فى الاعتبار فإننا نجد أن إسرائيل قد حاربت فى مواجهة تفوق ضخم لأعدائها . أما من ناحية المهارة والتكنولوجيا فقد كان الأمر لا يعدو أن يكون

مواجهة بين القرن العشرين والقرن التاسع عشر . فقد تأكد مرة أخرى أن فلاحى مصر الأميين ليسوا بأنداد للجندى الإسرائيلى المنظم المتعلم .

وفى الأمم المتحدة عقد مجلس الأمن جلسة طارئة عرقلها — كماحدث فى الجمعية العامة التى ناقشت الأزمة باستفاضة فى شهر يوليو— موقف الكتلتين الشرقية والغربية . فقد حاولت الكتلة الشرقية اصدار قرارات بإدانة إسرائيل ، على حين حاولت الكتلة الغربية البحث عن صيغة تدين الطرفين (وفى النهاية لم يحصل أى من مشروعات القرارات الثلاثة التى تم التصويت عليها فى الجمعية العامة بأغلبية الثلثين المطلوبة لإقراره) وكانت الحرب بالنسبة لأغلبية الدول بما فى ذلك الدول العربية بطبيعة الحال . دليلاجديداً على نوايا إسرائيل التوسعية — وبلغت سمعة إسرائيل فى العالم الغربى غداة الحرب شأواً بعيداً . فقد كانت الصحف تزخر بتقارير حماسية عن انتصار إسرائيل . وسيطر على الناس فى إسرائيل شعور له ما يبرره بالراحة والفرحة البالغة ، ولكن اختلط به كما سنرى فيما بعد إحساس بالحيرة والارتباك . وبدأ الإسرائيليون ، تماماً كبطل القصة الخرافية الذى تمنى أن يحكم الأرض التى تمتد أمامه على بعد النظر فتحققت أمنيته، بدءوا يدركون أن النصر الذى بدا وكأنه غاية فى حد ذاته أتى بمشكلات جديدة أكثر تعقيداً .

الأسس والحدود

عندما تحول الييشوف إلى دولة متكاملة فى عام ١٩٤٨ كان الانتقال سهلا نسبيًّا فى بعض جوانبه . فبعكس باكستان مثلا ، الدولة الجديدة الأخرى التى أنشئت قبل عام واحد فقط من إنشاء إسرائيل ، كانت الوكالة اليهودية والهستدروت (الاتحاد العام للعمال) والمؤسسات المختلفة الأخرى التى أقامها اليهود فى ظل عهد الانتداب ، قد طورت كل مقومات الدولة من أجهزة سياسية واجتماعية وإدارية . وحدث انهيار مؤقت فى الحكومة فى نهاية عهد

الانتداب ولكن البريطانيين خلفوا وراءهم تركة قيمة على شكل نظام مواصلات جيدة (طرق ، وسكك حديدية ، وخدمات تليفونية) ، ومبان صالحة للاستعمال ، ونظام حديث للمحفوظات ، أى أنهم تركوا البلاد باختصار فى حالة تسمح بالاستمرار فى إدارة أعمالها اليومية . وقد عطلت الحرب بلا شك بعض هذه الأعمال ولكن كانت هناك على الأقل أسس طيبة لاستمرار البناء .

وعلى أية حال حدث تطور كبير بعد عام ١٩٤٨ ، ساعد على تحول البلاد وجعل من إسرائيل مكاناً مختلفاً تماماً عما كانت عليه الييشوف . وتمثل هذا فى الهجرة الجديدة التى كانت تختلف عن الهجرة التى سبقت الحرب حجماً ونوعاً .

كان المهاجرون ، قبل الحرب ، يتألفون إلى حد كبير من نوع من الصفوة . فقد كانت إدارة الهجرة التابعة للمنظمة الصهيونية تتولى تسليم شهادات الهجرة ، وكانت تميل بطبيعة الحال إلى منحها للصهاينة وبخاصة لمن قامت الوكالات الصهيونية بتدريبهم وإعدادهم للحياة الجديدة فى فلسطين .

ولم يكن هناك بعد عام ١٩٤٨ أى معدل من هذا التدريب التمهيدى للغالبية العظمى من المهاجرين . فقد أعلنت الدولة الجديدة فتح أبوابها أمام الهجرة اليهودية ، وجموع المنفيين ، الأمر الذى كان يعنى السماح بدخول أى يهودى يرغب فى المجىء فى أى وقت يشاء . وفى الوقت نفسه أرسلت الحكومة — وهى تدرك كيف كانت إسرائيل فى خطر بسبب ضآلة عدد سكانها — مبعوثيها إلى الجاليات اليهودية فى كافة أنحاء العالم لتشجيعهم على الهجرة إليها .

وستعطينا نظرة سريعة إلى أرقام الهجرة فكرة عما أدت إليه سياسة الباب المفتوح . كان مجموع سكان إسرائيل فى عام ١٩٤٨ لا يزيد على ٩١٥٫٠٠٠ نسمة من بينهم ٧٥٩٫٠٠٠ يهودى .

الهجرة إلى إسرائيل خلال فترات مدة كل منها ثلاث سنوات

١٤ مايو ١٩٤٨ — ١٩٥٠	٥١١ر٦٥٣
١٩٥١ — ١٩٥٣	٢١٠ر٧٩٠
١٩٥٤ — ١٩٥٦	١١٢ر٠٨٢
١٩٥٧ — ١٩٥٩	١١٢ر١٠١
١٩٦٠ — ١٩٦٢	١٤٣ر٤٧٦
١٩٦٣ — ١٩٦٥	١٤٧ر٨٧٥

وهكذا تضاعف عدد سكان إسرائيل خلال عشر سنوات من إنشائها . وكانت الغالبية العظمى من المهاجرين ، خلال العامين الأولين من أوربا ، من المعدمين الذين نجوا من الحرب ، وظلوا ينتظرون فى المعسكرات حتى تفتح لهم دولة ما أبوابها . وجاء المهاجرون فى الخمسينيات من آسيا وأفريقيا وكانوا بدورهم فقراء وبحاجة إلى المساعدة . وبينما كانت تتراوح أعمار ثلاثة أرباع المهاجرين فيما قبل عام ١٩٤٨ بين خمسة عشر وخمسة وأربعين عاماً ، وهى أفضل سن بالنسبة لكسب العيش وإعانة أنفسهم ، لم يزد عدد المهاجرين الذين ينتمون إلى هذه المجموعة من الأعمار بعد عام ١٩٤٨ على النصف فقط . وهكذا ارتفاع معدل الناس الذين يعتمدون فى معيشتهم على الدولة تماماً لأسباب تتعلق بالسن أو بالحالة الصحية ارتفاعاً كبيراً . وعلاوة على هذا كان ٤٠ ٪ من المهاجرين من آسيا وأفريقيا أميين ، وكان معظمهم من أرباب الحرف الصغيرة ومن التجار ولم يكن بينهم سوى قلة من الفلاحين أو الفنيين ، كما كان لا بد من تعليم أكثر من نصفهم حرفاً جديدة لدى وصولهم إلى إسرائيل .

وكان هذا السيل الدافق من المهاجرين ، وهو سبب وجود الدولة الجديدة يعتبر بحق الوسيلة الوحيدة لضمان بقائها . فقد كان المهاجرون يمثلون قوة إنتاج ضخمة ، تستطيع — إذا ما توفر لها رأس المال — أن تغير شكل البلاد .

ولكن كان لا بد من البحث عن رأس المال مما جعل وجودهم يشكل عبئاً على موارد البلاد إلى أقصى حد . وكانت الهجرة تأتى على شكل موجات ، تمشت إلى حد كبير مع مسار الأحداث فى الخارج . وتظهر أرقام الهجرة السنوية تقلبات ضخمة ، مما جعل عملية استيعاب المهاجرين الجدد أكثر من نصف مليون مهاجر فى عامين ونصف العام ، فى البداية عندما كانت البلاد أقل استعداداً من أى وقت آخر لا ستقبالهم .

ما هى الموارد التى كانت تملكها إسرائيل لمواجهة المطالب الضخمة التى فرضت عليها ؟ إننا إذا وضعنا — مؤقتا — الجوانب الاجتماعية والسياسية للموضوع جانباً فإنه يمكن القول بأن التحدى الذى واجه إسرائيل كان تحديا اقتصادياً أولا وقبل كل شىء ، إذ كان الأمر يتعلق بأفواه لا بد من إطعامها وأسر لا بد من إيوائها ، وأعمال لا بد من توفيرها . وقد تبدو إسرائيل أرض اللبن والعسل فى نظر بدو ظمآى جاءوا إليها من الصحراء ، ولكنها طبقاً لمقاييس احتياجات الدولة الحديثة فقيرة فى مصادر الثروات الطبيعية .

إن مواردها من المياه ، وهى من أكثر مصادر الثروة الطبيعية قيمة ، محدودة ويتركز معظمها فى الجزء الشمالى من البلاد تقريباً . إذ توجد بها بحيرة واحدة ذات مياه عذبة (بحر الجليل) يغذيها نهر الأردن الذى يمر جزء منه فقط فى الأراضى الإسرائيلية ، ونهر آخر هو نهر العوجاء الذى يصب فى البحر المتوسط بالقرب من تل أبيب . ولا تفى هذه الأنهار بالإضافة إلى بعض الجداول الصغيرة ، والمياه الجوفية ، والأمطار الموسمية بحاجة البلاد من المياه ، فلم يكن يروى فى عام ١٩٤٨ سوى ٧٠،٠٠٠ فدان من بين ٥ ملايين فدان تقريباً ، ولم يتم تنفيذ أى شىء لحل المشكلة الملحة الخاصة بجلب المياه من شمال البلاد إلى جنوب النقب ، حيث كان من الممكن زراعة مساحات ضخمة من الأراضى عن طريق الرى . ويعترض طريق مشروعات استخدام مياه نهر الأردن عقبات سياسية لأنها ترتبط بالدول العربية أيضاً . ورغم أن هذه المشروعات ترددت كثيراً فلم تستطع إسرائيل فى الواقع تحقيق أى تقدم حقيقى

إلا فى مجال استغلال مصادرها الأخرى من المياه .

وكان هناك مشروعان طموحان يمثلان حجر الزاوية فى خطة السنوات السبع التى وضعت عام ١٩٥٣ أولهما مشروع فى العوجاء — النقب والآخر مشروع طبرية — النقب — لجلب المياه من نهر العوجاء وبحيرة طبرية إلى شمال النقب . وبعد أن بدأ تنفيذ هذين المشروعين ، بالإضافة إلى بعض مشروعات أخرى أصغر ، زادت مساحة الأرض المزروعة إلى خمسة أضعاف ما كانت عليه . ولكن أفضل ما يمكن توقعه حتى بعد أن تصل المشروعات الحالية إلى أقصى طاقتها ، هو توفير ما يكفى من المياه لرى أقل من نصف الأراضى الصالحة للرى فى البلاد . وفى الوقت نفسه تجرى تجارب لإزالة ملوحة مياه البحر ، حيث أنشئت معامل صغيرة لهذا الغرض ، كما يجرى العمل على قدم وساق فى مشروع لإقامة مفاعل ذرى لإزالة ملوحة مياه البحر بالتعاون مع الولايات المتحدة الأمريكية . ولكن بصرف النظر عما يحمله المستقبل من نتائج فى هذا الاتجاه . فإن إسرائيل لا تجد بداً فى الوقت الحاضر من الاستفادة إلى أقصى قدر ممكن من وسائل الرى التقليدية الملحة لها رغم أنها غير كافية .

وفى عام ١٩٤٨ لم يكن الوقت مشجعاً على الإطلاق بالنسبة لمصادر الثروة الطبيعية الأخرى فى إسرائيل ، فباستثناء وادى البحر الميت الغنى بالبوتاس والبرومين وبعض الأملاح الأخرى ، كانت سلطات الانتداب قد استبعدت النقب كمنطقة « لا أمل فيها » ولا يسكنها سوى البدو الرحل .

ولم يقم المستوطنون اليهود ، الذين جذبتهم أراضى الشمال الأكثر خصوبة باقامة أية مستعمرات تذكر فى الجنوب . حتى أن خطط التقسيم الأولى التى وضعت أثناء عهد الانتداب ، ومنها تلك التى كانت متحيزة لليهود بصفة خاصة لم تتضمن إطلاقاً ضم النقب إلى دولة اليهود المستقبلة . ولا يرجع تصميم اليهود على الاحتفاظ بها على أية حال ، بعد إن منحهم إياها آخر مشروعات التقسيم ، إلى مجرد دوافع عاطفية أو أسباب استراتيجية فقط بل إلى اعتقاد منهم بأنها تحوى ثروات معدنية كافية بها . وانتشرت « أسطورة النقب » بعد

عام ١٩٤٨ حول ما تحتوى عليه من ثروات معدنية بما فى ذلك احتمال وجود آبار للبترول . وجرت عمليات مسح جيولوجى ضخمة حتى بدا فى الخمسينات وكأن الآمال على وشك أن تتحقق ، فتفجر البترول فى منطقة هيليتز ، والغاز الطبيعى بالقرب من البحر الميت . وفى الوقت نفسه بدأالعمل فى مناجم النحاس (نفس المناجم التى اكتشفها الملك سليمان — حيث كان يمكن رؤية أكوام الفضلات التى تركها عماله) وتم اكتشاف مناجم أخرى للجبس ، ورمال الزجاج ، والفوسفات ، ما زالت تستغل تجاريًا حتى الآن ، وما زال حجم هذه العمليات صغيراً باستثناء النحاس إذ لايزيد إنتاج آبار البترول على مائتى ألف طن سنويًا أى أقل من ربع احتياجات إسرائيل من البترول (يتم استيراد الباقى من وراء البحار إذ أن المقاطعة العربية تحرمها من أقرب مصادر البترول إليها) . وما زال الأمل يراود إسرائيل فى أن يكون كل هذا مجرد بداية .

وقد اكتشف من المعادن ما يكفى لقيام مراكز صناعية للمدن الجديدة ومناطق التنمية . وبهذه الطريقة أثبتت منطقة النقب قيمتها الكبرى كوسيلة لتخفيف الضغط على الشمال المكتظ بالسكان . فلم يكن الشمال ، رغم خصوبته إذا قورن بالنقب ، مستعدًا لمعالجة المشكلات التى تجمعت عن الهجرة الجماعية التى شهدتها السنوات الأولى . لقد حقق اليهود خلال عهد الانتداب تقدماً ضخماً فى مجال استصلاح الأراضى ، ولكن كانت هناك فى عام ١٩٤٨ مساحات ضخمة ما تزال مستنقعات فى معظمها ، وقد تم استصلاح هذه الأراضى وجعلها صالحة للزراعة خلال السنوات العشر التالية ومن بينها حوض الحولة فى أقصى الشمال .

وكانت تزرع الخضر والموالح وبعض الفواكه الاستوائية الأخرى بوفرة على طول السهل الساحلى ، وفى وادى الأردن وسهول جزر يل علاوة على إنتاج قدر معين من القمح ، ولكن لم يكن هذا كله بالكمية المطلوبة لإطعام الأعداد المتزايدة من السكان . وعلاوة على هذا تعرضت الموالح ، التى تمثل المحصول الوحيد فى البلاد ، الذى له قيمة حقيقية لضربة شديدة عندما أغلقت

الأسواق الأوربية خلال الحرب العالمية ، فأصبح الكثير من مزارع الموالح مهجوراً فضلا عن عدم زراعة المزيد منها . وانخفضت صادرات الموالح وهى مصدر حيوى للعملات الصعبة ، فى العام الأول بعد إنشاء الدولة إلى أقل من المستوى الذى حققته فى نهاية الثلاثينيات بكثير .

وحتى تكتمل أركان الصورة عن تلك السنوات الأولى ، لم يكن قد تم تنفيذ سوى القليل فى المجال الصناعى ، الأمر الذى لم يطمئن من كانوا يفكرون فى إمكانيات هذه الدولة على البقاء . فقد أقام الييشوف عديداً من مشروعات الصناعات الخفيفة بهدف إنتاج سلع استهلاكية للسوق المحلية فى فلسطين والدول العربية المجاورة (وكان الاستثناء الهام الوحيد هو صناعة صقل الماس التى كان يذهب كل إنتاجها للتصدير) . ولم يكن يتم تصنيع أية كمية من المنتجات الصناعية الثقيلة باستثناء الأسمنت الذى كانت تنتجه شركة سوليل بونيه للإنشاءات التابعة للهستدروت وهكذا كان لا بد من استيراد جميع السلع الصناعية تقريباً .

وكان هناك نقص عام آنذاك فى المنتجات الزراعية والصناعية وفى العملات الأجنبية اللازمة لشرائها . وبدأ تدفق الأموال وكانت فى معظمها من الجالية اليهودية والأمريكية على شكل تبرعات أو عن طريق بيع السندات . ولكن كان من الضرورى الاحتفاظ بكل ما يتوفر من عملات أجنبية لشراء المعدات الرأسمالية ، والمواد الخام ، والإحجام عن إنفاقها فى شراء المواد الغذائية وغيرها من السلع الاستهلاكية . ولهذا طبق برنامج صارم للتقشف يشبه ذلك الذى طبق فى إنجلترا خلال الحرب العالمية الأخيرة وفى أعقابها مباشرة . ووزعت الأطعمة وجميع السلع الاستهلاكية بالبطاقات ، وارتفعت الضرائب ، وخضعت الواردات لإشراف دقيق .

لقد كانت تلك فترة كئيبة بالنسبة لمواطنى الدولة الجديدة . ولكن انتصار عام ١٩٤٨ المفاجئ ضد العرب قد عمل على الاحتفاظ بمعنوياتهم عالية الأمر الذى ساعدهم على اجتياز فترة التقشف . ولهذا ينتاب الجيل الأكبر

فى إسرائيل — حتى اليوم — شعور ببعض الندم على الأيام القاسية البسيطة الأولى عندما كانت الدولة ما زالت ناشئة ، وكان كل فرد على استعداد للتضحية من أجلها . وهذا إحساس يشبه ما يشعر به بعض الناس فى إنجلترا عندما يعودون بذاكرتهم وكلهم حنين إلى عام ١٩٤٠ .

وكان للحكومة هدف مزدوج هو زيادة الإنتاج الزراعى والبدء فى التصنيع ولم تكن ورطة إسرائيل فريدة فى نوعها ، بل كانت شائعة فى كل الدول النامية ولكن زاد من تعقيد هذه المشكلة فى إسرائيل أمران أولهما يتعلق بأوضاع الأمن ، وضرورة تخصيص جزء كبير من الميزانية القومية للدفاع ، وثانيهما أن المهمة لم تكن لتقبل الانتظار ، لأنه ما لم يتم تنفيذ كل شىء بسرعة فقد يصبح نجاح تجربة « تجميع المنفيين » بأكملها فى خطر ، فما كان المهاجرون يأتون إذا لم تكن أمامهم فرص للعمل ، ومساكن لإيوائهم . وحتى لو كانوا قد اضطروا إلى المجئ ، ليواجهوا بطالة ضخمة ، ومتاعب اجتماعية ، لأصبح ما ادعته الحكومة فى بيان الاستقلال من أنها ستعمل على تطوير البلاد وتنميتها « لصالح كافة سكانها » خالياً من أى معنى أو جوهر . فقد كان على الدولة أن تكون قادرة على ضمان مستوى معقول من المعيشة لشعبها . وكان من الصعب على إسرائيل بعد أن حدد الييشوف مستويات عالية أن تحقق ما دونها بكثير .

وهكذا كان دور الحكومة « كحامية للشعب » دوراً حقيقياً فى ظل الظروف الاجتماعية التى خلقتها الهجرة . فلم يكن ممكناً أن تترك عملية استيعاب المهاجرين الجدد للحظ أو للمجهود الفردى ، بل كان من الضرورى وجود إشراف مركزى صارم بعض الشىء على تنظيم المهاجرين الجدد ، وتخطيط البناء الاقتصادى الذى سيحتويهم .

وحتى لو لم تكن هناك « حالة الأزمة » التى ترتبت على حركة الهجرة الجماعية لظل للحكومة دور رئيسى فى بناء الاقتصاد . لقد ثار هناك — بطبيعة الحال — جدل حول المزايا النسبية لكل من الملكية الخاصة والملكية العامة ، ورفعت أحزاب الجناح اليمينى صوتها بالشكوى عالياً حول عدم كفاية

المؤسسات والمشروعات التى يديرها القطاع العام ، وحول الامتيازات التى قالت إن الحكومة فتحتها للشركات والمؤسسات التابعة لها ، دون غيرها من تلك التى تتبع القطاع الخاص . ولكن غالبية الأحزاب السياسية لم تكن تشك فى أن القطاع العام يجب أن يكون ركيزة الاقتصاد . وبغض النظر عن أحلام الرواد الأوائل فلم يكن بمقدور إسرائيل أن تقيم اقتصاداً اشتراكياً خالصاً ، بل كان من المحتم أن يكون اقتصاداً مختلطاً حيث يتواجد القطاع الخاص مع القطاع العام جنباً إلى جنب ، وعلى أية حال فلم يكن مركز الجاذبية فى الاقتصاد الإسرائيلى ، منذ البداية موضع نقاش .

لقد كان الييشوف منذ ظهوره إلى الوجود مؤسسة جماعية ، إذ كانت الأراضى ، وهى السلعة الرئيسية ، ملكاً للصندوق القومى اليهودى الذى كان يقوم بتأجيرها للأفراد أو الجماعات لمدة تسعة وأربعين عاماً مقابل إيجار رمزى .

(وما زال الجزء الأكبر من الأراضى حتى اليوم ملكاً للدولة أو الصندوق القومى اليهودى .) وقد رأينا كيف جعل المستوطنون الأوائل فكرة الكيبوتز أفضل وسيلة لتمهيد الأراضى وإعدادها للزراعة . وبالطريقة نفسها كان العمال اليهود فى المستعمرات والقرى الحضرية (قرى القطاع الخاص التى أقيمت حول مزارع الموالح والكروم) يكونون مجموعات من هذه القرى أو المستعمرات ضماناً لاستمرار بقائها ، ويعملون على شكل جمعيات تعاونية . وفى الوقت الذى ازداد فيه اقتناع العمال بفكرة النظام التعاونى ، كان قد أصبح من الواضح تماماً أمام زعماء الييشوف أنهم لن يحققوا شيئاً لو تركوا مهمة تطوير مجتمعهم للقطاع الخاص . ولم يكن غريباً أن يعتبر الاستثمار فى فلسطين مخاطرة . واختار الأفراد ممن كانوا يرغبون فى استثمار أموالهم فى الييشوف مشروعات آمنة (مثل الصناعات الخفيفة التى كانت قد حققت نتائج طيبة) أكثر من المشروعات الطموحة التى كان يفكر فيها زعماء الييشوف . وهكذا لم يكن أمام الوكالة اليهودية إلا أن تتحمل بنفسها مهمة تنمية الأراضى . وبعد عام ١٩٤٨ تحملت الحكومة العبء الرئيسى ، رغم أن الوكالة اليهودية استمرت

فى استثمار الأموال فى الزراعة والإسكان . وتغطى ميزانية الحكومة الآن كل فرع من فروع الاقتصاد تقريباً . ويبلغ حجم الاستثمار الحكومى فى التنمية فى مجالات الزراعة والصناعة والتعدين والنقل والإسكان ما يقرب من ٢٣٪ من إجمالى الإنفاق .

وفى الوقت نفسه كان الهستدروت (الاتحاد العام للعمال) ينمو جنباً إلى جنب مع الوكالة اليهودية خلال عهد الانتداب ليساهم فى دعم القطاع العام فى المجال الاقتصادى . وفى الواقع قامت مجموعة من العمال الزراعيين والحضريين بتكوين الهستدروت فى عام ١٩٢٠ أى قبل عام من إنشاء الوكالة اليهودية ؛ وكانت معظم اهتمامات الهستدروت فى البداية زراعية لأن الكيبوتزات كانت أفضل مجموعة منظمة فى البلاد آنذاك ، ولكن نطاق هذه الاهتمامات قد اتسع وتنوع حتى شملت أنواعاً متعددة من النشاط ، الأمر الذى يدخل فى إطار منظمة اتحادات العمال فى بريطانيا مثلا . وفى الواقع لا يوجد للهستدروت مثيل فى أى دولة أخرى فهو ، من جهة ، اتحاد عمالى ضخم تشمل عضويته الآن أكثر من ثلثى السكان العاملين فى إسرائيل ، أما من الجهة الأخرى فيمكن اعتباره نوعاً من حكومة الظل إذ يقوم بكثير من المهام التى تقوم بها الدولة فى دول أخرى ، فيتبعه قسم خاص للخدمات الصحية يغطى بخدماته ٧٠٪ من السكان ، كما يلعب دوراً هاماً ، إن لم يكن أكثر أهمية فى المجال الاقتصادى من الحكومة حيث إنه لا يملك نصيباً رئيسياً فى صناعة البناء ، ويسهم فى كثير من الصناعات الرئيسية الأخرى فحسب ، بل يتولى تنظيم تسويق الجزء الأكبر من الإنتاج الزراعى للبلاد .

وهكذا طورت إسرائيل اقتصاداً من ثلاثة قطاعات حيث أصبحت للحكومة ، والهستدروت ، والقطاع الخاص ، مصالح هامة فى هذا المجال . وفى السنوات الأخيرة طرأ تغيير طفيف على التوازن بين هذه القطاعات المختلفة إذ استطاعت الحكومة عن طريق حوافز ومزايا استثمارية أن يجتذب مزيداً من الرأسمال الأجنبى الخاص إلى البلاد . ويعمل حالياً معظم المشتغلين بالصناعة

(أو ٧٠ ٪ منهم) في مشروعات خاصة ، على حين يعمل أكثر من ربعهم بقليل فى القطاع العام (من بينهم ١٧ ٪ فى مشروعات الهستدروت ، ١٢ ٪ فى مشروعات الحكومة) . وعلى أية حال فإن ثقل القطاع العام أكبر مما توحى به هذه الأرقام إذ يتركز نشاطه فى مجالات الصناعة الثقيلة والبناء والزراعة . وفى مجال الإيرادات نجد أن القطاع العام يدر ما يقرب من نصف إجمالى الثروة القومية .

وكان هذا بمثابة الأساس الذى بدأت إسرائيل تقيم صرح اقتصادها عليه ، أى توفير قدر كاف من إشراف الدولة لإرضاء المثل العليا شبه الاشتراكية التى اعتنقها معظم الفكر الصهيونى ، دون أن يكون نطاق هذا الإشراف من الاتساع بحيث يعوق قدوم المستثمرين من الدول الأخرى كالولايات المتحدة مثلا ، ممن ينفرون من فكرة الملكية العامة الكاملة . وسرعان ما بدأ رأس المال الذى كانت إسرائيل فى مسيس الحاجة إليه فى التدفق عليها ، حيث حصلت على ٣٠٠٠ مليون دولار تقريباً خلال السنوات العشر الأولى ، جاء معظمها فى البداية عن طريق تبرعات المنظمات اليهودية فى العالم ، والتعويضات الألمانية ، والقروض والمساعدات التى قدمتها حكومة الولايات المتحدة الأمريكية ثم ازداد بعد ذلك حجم الاستثمارات الفردية .

ولم يكن من الممكن أن يعجز هذا التدفق الضخم لرءوس الأموال عن تحقيق نتائج طيبة . وبطبيعة الحال كانت هناك أمثلة عديدة على ثروات ومجهودات ضائعة ، وعلى عدم الكفاية ، وعلى قرارات خاطئة إذ لا يخلو بلد من هذه الأخطاء البيروقراطية ، ولكن إسرائيل لا تعانى منها أكثر من غيرها ، وإن كان الفارق الوحيد فى حالتها أن الأخطاء كان لها تأثير أكبر بسبب البرنامج العاجل الذى وضعته لنفسها . ويوجد فى الجانب الآخر من الميزانية حقيقة لا تقبل الجدل وهى أن إسرائيل حققت توسعاً ضخماً . وحيث إن معظم البنود الواردة بإحصائيات الإنتاج فى إسرائيل حالياً لم تكن موجودة فى السنوات الأولى التى تلت قيام الدولة ، فإن عملية المقارنة مع هذه الفترة تكاد

تكون متعذرة . وعلى أية حال فإن الجدول التالى يعطينا فكرة عن التقدم الذى تحقق منذ عام ١٩٥٨ فى بعض مجالات الإنتاج الصناعى الهامة .

الإنتاج الصناعى (أصناف مختارة)

		١٩٥٨	١٩٦٥
الكهرباء	بالمليون كيلووات ساعة)	١٩٨٢	٤٠٦١
بترول خام	بالمليون لتر	١٠٢	٢٣٤
صخور فوسفات	(بالألف طن)	٢١٠	٣٩٢
ملح	(بالطن)	٣٣٦٩٢	٥٤٧٩٠
منتجات بترولية وكيمائية	(بالألف طن)	٣٣٩٤٠٠	٥٥٨٤٠٠
خيوط غزل القطن	(بالطن)	٨٥٩١	٢٣٣١٣
منسوجات قطنية	(بالطن)	٧٥٥٧	١٠٧٤٨
خشب حبيبى	(بالمتر المكعب)	٢٨٠٨٠	٨٨٣٢٣
إطارات	(بالألف وحدة)	٢٤٨	٦١٢
عصير موالح	(بالألف لتر)	١٥٥٩٨	٨٠١١٤
فواكه محفوظة	(بالطن)	١٢٠٤٦	٢٧٢١٥
مركبات تجارية	(بالوحدة)	٢٧٦٩	٤٣٠٤
سيارات ركوب	(بالوحدة) *	٨٠٣	٣٣٣٦
أسمنت	(بالألف طن)	٧١٣	١٢٦٠

لقد تحققت زيادة مذهلة فى حجم إنتاج هذه الأنواع فى فترة لا تتعدى سبع سنوات ، وربما تكون هذه الزيادة أكثر وضوحاً لو توفرت لدينا إحصائيات عن السنوات التى سبقت ذلك أى فى منتصف الخمسينيات ، لقد ظل الإنتاج القومى فى إسرائيل ينمو بمعدل ١٠ ٪ سنوياً ، وهو معدل زيادة مرتفع جداً؛

* يتم استيراد ٥٠٪ من أجزاء هذه المركبات والسيارات من الخارج

لا يضاهيه فى أوربا الغربية سوى معدل الزيادة فى ألمانيا .

وكما نتبين من الأرقام السابقة فالتصنيع كما نفهمه أى بمعنى تنمية الصناعات الثقيلة ، ليس بالشىء الذى تستطيع إسرائيل تحقيقه فى الوقت الحاضر . ومن الصعاب الكبرى التى تواجهها إسرائيل فى تخطيط إنتاجها أن سوقها المحلية محدودة وأنها معزولة عن امتدادها الطبيعى فى المنطقة ذاتها مما يحتم على أية صناعة سيزيد نموها على حد معين أن تفكر فى إنتاج ما يمكن أن تصدره فيما وراء البحار . ولكن المنافسة شديدة مع الأسواق الغربية فيما وراء البحار ، ولا تستطيع إسرائيل أن تنافسها بنجاح إلا فى مجالى المنتجات الصناعية الخفيفة نسبياً . وهذا يجعل إسرائيل ضعيفة أمام التكتلات التجارية مثل السوق الأوربية المشتركة ومنظمة التجارة الحرة الأوربية . وفى عام ١٩٦٤ نجحت إسرائيل فى الحصول على امتيازات بالنسبة للرسوم الجمركية على عدد من منتجاتها المصدرة إلى أوربا . وتتمنى إسرائيل لو أنها أصبحت عضواً منتسباً فى السوق الأوربية المشتركة ولكن قد يحول المغزى السياسى لمنح إسرائيل مثل هذه العضوية ، والمشكلات التى قد تواجهها السوق فى علاقاتها مع الدول العربية نتيجة لهذا ، دون حدوث أى تقدم فى هذا الاتجاه لبعض الوقت .

ونتيجة للأهمية القصوى للصادرات بالنسبة لإسرائيل ، فقد كانت كل من الخطة الخمسية الأولى فى عام ١٩٥٩ ، والخطة الخمسية الثانية فى عام ١٩٦٥ تمثل أساساً خطوطاً توجيهية لتنمية صناعات التصدير رغم أن كلا منهما شمله المجال الصناعى بأسره فى السنوات الأولى على صناعتين للتصدير تقريباً ، وهما الموالح والماس المصقول ، جعلها معرضة للهزات من الناحية الاقتصادية ، إذ أن أى كساد يصيب إحدى الصناعتين قد تكون له آثار بالغة السوء على ميزان البلاد التجارى . وهكذا بذلت كافة الجهود لزيادة حجم ونوعية الصادرات . وبانتهاء الخطة الخمسية الأولى زادت قيمة الصادرات الإجمالية على الضعف (ذهبت ٦٥ ٪ من الصادرات إلى أوربا) ورغم أن الماس والموالح قد تصدرا القائمة ، فإن المنسوجات ، والمواد الكيماوية ، والمواد الغذائية وغير ذلك من

المنتجات كانت تمثل نصف قيمة الصادرات تقريباً .

ولكن الواردات زادت بازدياد عدد السكان ، ولم يكن هذا مقصوراً على المواد الخام الأساسية ، التى لا تستطيع إسرائيل نفسها إنتاجها بل امتد إلى السلع الاستهلاكية كذلك بمجرد إلغاء برنامج التقشف وخفض سعر الجنيه الإسرائيلى مرتين منذ عام ١٩٥٢ ، ولكن لم يستمر أى تحسن طرأ على الميزان التجارى نتيجة لهذا مدة طويلة لأن ارتفاع الأسعار المستمر محليًّا زاد من صعوبة منافسة المنتجات الإسرائيلية لمثيلاتها فى السوق الخارجية .

ورغم أن الصادرات أصبحت تغطى تكاليف جزء أكبر من الواردات عما مضى فقد زاد العجز فى الميزان التجارى فى السنوات الأخيرة .

التجارة الخارجية (بالمليون دولار)

	١٩٥٨	١٩٦٢	١٩٦٥
الصادرات	١٣٨ر٢	٢٧١ر٤	٤٠٦ر٠
الواردات	٤٢١ر٥	٦٢٦ر٢	٨١٢ر٠
العجز فى الميزان التجارى	–٢٨٣ر٣	٣٥٤ر٨	٤٠٦ر٠

وتتم تغطية العجز فى الميزان التجارى لإسرائيل عن طريق أموال من مصادر مختلفة ، ويأتى معظمها من صندوق النداء اليهودى الموحد) الذى يقوم بجمع الأموال من الجاليات اليهودية فى كافة أنحاء العالم ويتصدر يهود أمريكا قائمة المتبرعين) ، ومن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا الغربية . وعلى أية حال فقد انتهت اتفاقية التعويضات الألمانية (ومجموعها ٨٢١ مليون دولار على مدى اثنى عشر عاماً) فى عام ١٩٦٥ رغم أنه تم التفاوض على قرض جديد حينذاك مع الحكومة الألمانية .

وفى عام ١٩٦٦ ساء الموقف الاقتصادى الداخلى فى إسرائيل فجأة بسبب مجموعة من الظروف انعكس أثرها على العجز فى الميزان التجارى . وقامت الحكومة فى محاولة للحد من التضخم المتزايد ، بتخفيض الأجور ، كما حثت

صناعات الخدمات بتخفيض الأيدى العاملة بها حتى يتحول مزيد من العمال إلى صناعات التصدير . وأدى هذا الموقف (وهو موقف مألوف فى كثير من البلاد) إلى كساد مؤقت لم تفق منه إسرائيل بعد ، له كافة الأعراض المألوفة ، مثل ازدياد البطالة ، والتوتر فى دوائر الأعمال ، وشعور عام بانخفاض الروح المعنوية . ودارت ، وما زالت تدور مناقشات حادة على المستوى الحكومى بحثاً عن أفضل السبل لتخليص إسرائيل من هذه المشكلة وغيرها من المشكلات الاقتصادية التى تواجهها . وكثيراً ما يوجه اللوم إلى الحكومة لتقاعسها عن اتخاذ خطوات جادة لوقف التضخم بطريقة أسرع ، ولكنها فى الحقيقة مشكلة مزمنة ، ولا يمكن حلها بسهولة لأنه كان من المحتم مع الزيادة السريعة فى عدد السكان أن الاستهلاك يفوق الإنتاج ، ومن المتوقع أن يستمر هذا الوضع لعدة سنوات قادمة . وفى خلال هذا يتبع رجال الصناعة ، والمستثمرون ممن يحتمل قدومهم فى المستقبل سياسة « انتظر . . . لترى » ، وهى سياسة لا تعود على الصناعة الإسرائيلية بأى نفع .

وقد تعرض النمو الزراعى بطبيعة الحال لبعض العراقيل لكنها كانت أقل مما تعرض له النمو الصناعى ذلك لأن الصناعة كانت أكثر المجالات الاقتصادية نظاماً وتطوراً عندما أنشئت الدولة . وأخذ التوسع فى المجال الزراعى يسير إلى الأمام بخطا حثيثة ، حتى لم يعد يبدو تحقيق الاكتفاء الذاتى فى المواد الغذائية هدفاً خيالياً كما كانت الحال منذ خمسة عشر عاماً ، حيث يتم الآن إنتاج ثلاثة أرباع المواد الغذائية اللازمة للبلاد محلياً ، ويغطى الجزء الباقى ، الذى يستورد من الخارج ، بوساطة الصادرات الزراعية التى تضاعفت خلال السنوات العشر الأخيرة . وقد استحدثت حاصلات جديدة هامة مثل القطن ، والفول السودانى ، والبنجر ، وأدى تحسن نظم الزراعة إلى زيادة كمية الإنتاج وجودته .

ولم تتخذ الحكومة — وهى تضع أسس سياستها الزراعية تماماً مثلما فعلت بسياستها الصناعية — أى موقف جامد قاطع تجاه أنواع المستعمرات التى يجب

تشجيع إنشائها ، وإنما تركت العنان لموقف متباين الجوانب لكى يتطور وينمو . وهكذا يوجد فى أحد الجوانب المستعمرات الجماعية والتعاونية (الكيبوتز) والموشاف عوفديم ، والموشاف شيتونى ، التى تشغل أكبر منطقة من الأراضى المزروعة ، وتنتج ثلاثة أرباع الحاصلات والخضر ، رغم أن عدد سكانها حالياً أقل من نصف سكان المناطق الريفية كلها ، وتوجد فى الجانب الآخر « القرى العادية » التى تحول القديم منها — بمرور الوقت — إلى مدن صغيرة . غير أنه إلى جانب ذلك فقد ازدهرت — منذ انشاء الدولة — مجموعة جديدة من القرى كجزء من خمسة مشروعات للتنمية الإقليمية قامت الحكومة بتنفيذها لعدة دوافع ، منها زيادة عدد سكان الريف (إذ لم يزد عددهم على سدس عدد السكان فى عام ١٩٤٨) وفتح مناطق جديدة لم يسبق زراعتها من قبل ، ودعم المستعمرات على طول حدود إسرائيل المكشوفة لأسباب تتعلق بالدفاع .

وتوجد فى وسط كل إقليم من هذه الأقاليم « مدينة رئيسية » أو مركز مثل مدينة عفولة فى إقليم إيميك جيزريل أو مدينة كيريات جات فى الجنوب ، وتنتشر حولها عدة مناطق ريفية تضم كل منها ما بين أربع وخمس قرى ، ويبلغ عدد القرى التى يضمها الإقليم كله قرابة خمسين قرية تعمل كلها كوحدة اقتصادية واحدة . ولم تكتمل كافة المشروعات الإقليمية بعد ، ومع هذا فقد تحققت بالفعل زيادة فى عدد سكان الريف ، وزاد من سرعة العملية بأسرها برنامج عرف باسم (من السفينة إلى المستعمرة) يتوجه بمقتضاه المهاجرون من حيفا حيث يصلون إلى المستعمرة التى يتقرر أن تكون مقراً لهم . وبهذه الطريقة أمكن تفادى « معسكر الانتقال » الذى كانوا يقيمون به فى الماضى . وتبدو هذه المستعمرات الجديدة خشنة فى مظهرها — حيث تنتشر منازلها فى مجموعات لها شكل الصناديق على الأرض الوعرة بشكل لا يدعو إلى الاطمئنان — ولهذا لا يمكن مقارنتها بطبيعة الحال بالمستعمرات القديمة . ورغم ما يشعر به بعض سكانها من إغراء بالذهاب للعيش فى أماكن أخرى يتوفر فيها مزيد من وسائل الراحة فإن الحقائق الاقتصادية الصعبة مثل الإيجارات المرتفعة فى المدن ،

ونقص فرص العمل ، تحول بينهم وبين ذلك .

وتقوم الغالبية العظمى من هذه المستعمرات الريفية ، سواء أكانت مستعمرات جماعية أم قرى ، بتسويق منتجاتها وشراء معظم احتياجاتها عن طريق وكالات الهستدروت المتعددة . ويمكن أن تتم عمليات البيع والشراء عن طريق وكالات خاصة ولكن معظم المستعمرات تفضل استخدام وكالات الهستدروت لدقة نظامها ومنها وكالة التنوفا وهى منظمة التسويق التى تقوم بتجميع إنتاج المستعمرة وبيعه ، « والهاماشبير هامركازى » وهى وكالة المشتريات التى تقوم بتزويدهم بكل ما يحتاجون إليه من الأسمدة حتى الملابس . وللنظام التعاونى جذور عميقة فى الحياة الريفية ، ولا شك فى أن جزءاً كبيراً من نجاح هذه المستعمرات فى زيادة الإنتاج الزراعى يرجع إلى قبولها لمبادئ هذا النظام دون مناقشة . ويعتبر الهستدروت عنصراً رئيسياً فى تنظيم الزراعة فى إسرائيل وهو اسم يتردد فى كل مجال من المجالات الاقتصادية فى إسرائيل .

وفى السنوات الأولى التى تلت إنشاء إسرائيل كان المبنى الضخم الذى اتخذ مقراً للهستدروت فى تل أبيب يعرف باسم « الكرملين » ولم تكن هذه التسمية بسبب حجم المبنى فقط . وفقد الهستدروت جزءاً ضئيلا من صورته الأولى كمنظمة ضخمة تنتشر فروعها فى كافة أرجاء المجتمع مع مرور الوقت ، ومع نمو قطاعات اقتصادية أخرى بجانبها وإن كان قد احتفظ بشيء من هذه الصورة . وبالطبع قد يتعرض الهستدروت لسيل لا ينقطع من الاتهامات بالبيروقراطية ، واتباع الأساليب الروتينية . وقلما تستطيع أية منظمة بنفس القوة والانتشار أن تتفادى مثل هذه الاتهامات ، بل وربما كان لبعضها ما يبرره وإن كان هذا شيئاً متوقعاً بالنسبة لأية مؤسسة بنفس الحجم ، وربما كان النقد أو الخوف من نفوذها السياسى له ما يبرره أكثر من أى شيء آخر ويتم انتخاب مؤتمر الهستدروت على مستوى البلاد بأسرها ويضم ممثلين عن الأحزاب السياسية تقريباً (باستثناء الجناح اليمينى المتطرف فله اتحاد عمالى خاص به) . وكما سنرى فيما بعد يسيطر حزب الماباى الحاكم على سياسة الهستدروت كما

يسيطر على السياسة القومية . وهكذا يدعم موقف الهستدروت إلى أبعد حد يستطيع أن يمارسه من نفوذ عن طريق الحكومة والعكس صحيح ، إلا عندما يختلف قادة الحكومة مع قادة الهستدروت وهو أمر نادر الحدوث .

وغالباً ما يتولى كبار المسئولين فى الهستدروت مناصب وزارية فقد كان بن جوريون مثلا أول سكرتير عام لهذه المنظمة . وحتى عام ١٩٦٣ عندما انقسم حزب الماباى على نفسه ، لم يكن هناك أى شرخ فى الصرح الضخم الذى أقامه حزب الماباى كأساس للعلاقات بين الحكومة ، والهستدروت . ولا ريب فى أن هذا الوضع قد أدى إلى استقرار سياسى ، ولكنه أدى كذلك إلى قدر من الولاية أو الوصاية دون أن يعنى هذا اتهام أى من الأحزاب بالفساد . فأصبح من العوامل المساعدة على الترقى والتقدم فى إسرائيل أن يكون المرء ضمن دوائر الماباى أو قريباً منها . ورغم أن الناس لا يتعرضون نظرياً لأى نوع من التفرقة بسبب آرائهم السياسية فإن شخصاً ينتمى إلى أقصى اليسار أو إلى الحزب الشيوعى كان وما زال حتى اليوم يجد كثيراً من الأبواب الموصدة تعترض طريق حياته العملية .

ولكن قبل أن ننتقل إلى الجانب السياسى يحسن بنا أن نلقى نظرة على كل ما يعنيه هذا بالنسبة للإسرائيلى العادى ، إذا كنا نستطيع الحديث عن مثل هذا الشخص . لنأخذ مثلا أحد عمال المصانع . . . كيف أثر الرخاء الذى حققته البلاد مؤخراً . وإن كان مازال محل جدل ، على دخله وإلى أى حد ، من وجهة نظره الخاصة ، جاء هذا متمشياً مع المثل الإنسانية العليا ، والمستوى الرفيع والعدالة الاجتماعية التى تتضمنه وثيقة إعلان الاستقلال .

إذا أخذنا أحد « الصابرا » ممن ولدوا فى إسرائيل من اثنين هاجرا من شمال أفريقيا نموذجاً للإسرائيلى « العادى » نجد أنه ربما يلتحق بالعمل فى سن الرابعة عشرة ، بعد أن يكون قد أمضى تسع سنوات من التعليم الإجبارى . فإذا كان طموحاً يستطيع أن يستفيد لبعض الوقت من أحد البرامج التدريبية التى تخصص

لمن تخلفوا عن الدراسة ، وتشرف على هذه البرامج الحكومة أو الهستدروت أو بعض المنظمات الخيرية المختلفة وكلها بالمجان أو تغطى نفقاتها بما تتلقاه من إعانات ضخمة . وهكذا يستطيع من يتخلف عن الدراسة لعجزه عن تحمل نفقات التعليم الثانوى ، أو لعدم حصوله على منحة ، أن ينال قسطاً أوفر من التعليم . ولكن غالباً ما يدفعه ضغط أصدقائه والظروف المحيطة به إلى البحث عن عمل كل الوقت ، وسوف يكون دخله ضئيلا فى البداية فربما يصل إلى ١٠٫٤٤ جنيهات إسرائيلية يومياً[1] ، ولكن دخله يرتفع بعد أن يعود من الخدمة العسكرية التى تبدأ فى سن الثامنة عشرة ، وينتقل إلى مرتبة العامل الماهر يتحصل على ما يوازى ٤٠ أو ٥٠ شلناً بريطانيا يومياً ، أى قرابة ٥٠ جنيهاً إسترلينياً فى الشهر . وقبيل الأزمة الاقتصادية الحالية كان من غير المحتمل أن تهدده البطالة ، وكان أجره يرتبط بجدول تكاليف المعيشة فإذا طرأ أى ارتفاع حاد على تكاليف المعيشة ، زاد أجره تلقائياً . وبطبيعة الحال ترتب على هذا المبدأ الهام الخاص بربط الأجور بتكاليف المعيشة حالة من التضخم لأنه شجع بطريق مباشر على استمرار ارتفاع الأجور والأسعار . وبعد أن تراجعت الحكومة عن هذا المبدأ بحجة الأزمة الاقتصادية الراهنة ، فإنها لا تنوى إعادة تطبيقه فى المستقبل القريب . وعلى أية حال فليس هناك شك فى أن هذا المبدأ قد ساهم فى تثبيت علاقات العمل . فمعظم الإضرابات العمالية فى إسرائيل إضرابات رمزية ، تتراوح مدتها ما بين يوم وثلاثة أيام فقط . وعلى العكس من بريطانيا حيث يضرب العمال ممن لهم حق التصويت حتى لو كان يتولى الحكم حكومة عمالية ، نجد أن الولاء للحزب فى إسرائيل أعمق من هذا بكثير فمن المحتمل أن يعارض مؤيدو الماباى فكرة القيام بإضراب عند مناقشة الأمر فى إحدى اللجان العمالية ، إلا إذا أظهر لهم الهستدروت موافقته على هذا ، وهو قلما يفعل هذا ، ويتم وضع معظم جوانب سياسة الحكومة الاقتصادية بالاشتراك مع الهستدروت ، ولهذا فإن معارضتها على مستوى المصنع لم تلق أبداً

---

(١) الجنيه الإسترلينى يعادل ٨٫٣٨ جنيهات إسرائيلية .

تعاطفاً قوياً من جانب كبار قادة الاتحاد .

ولكن إذا عدنا إلى عامل المصنع الذى اخترناه كمثال للإسرائيلى العادى لنرى ما يحدث له بعد أن يعود من تأدية الخدمة العسكرية نجد أن دخله قد زاد قليلا ، وأنه ربما يبدأ فى التفكير فى مغادرة منزل والديه حيث يزيد عدد الأبناء على عدد أقرانهم فى منزل أسرة أخرى من أصل أوربى ، وربما يكون دافعه على الابتعاد عن أسرته الكبيرة رغبته فى تكوين أسرته الخاصة وبالتأكيد يستطيع تحقيق هذا بالزواج ، وعلى الرغم من أن والديه قد عاشا عندما تزوجا فى سعادة تامة فى منزل أبويهما فى شمال أفريقيا ، فإنه سيبدأ فى الادخار ليشترى أو يؤجر مسكناً خاصاً به . فإذا لم يكن محظوظاً بقدر كاف ليحصل على مسكن من المساكن التى تملكها الحكومة حيث يتمتع — لأنه حديث العهد بالزواج — بمزايا خاصة ، فربما تكون أسعار المساكن فى المدن الكبيرة فى الشمال أو بالقرب منها (والتى تبلغ ٢٥٠٠ جنيه أو أكثر) عقبة فى طريقه . ويستطيع أن يحاول الحصول على قرض عن طريق نقابته العمالية أو احدى جمعيات الإسكان الخاصة ولكنه ربما يقرر ، بسبب ارتفاع معدلات الفوائد نتيجة لأزمة القروض الحالية ، أن يتفادى أية خسائر ويذهب ليعيش فى إحدى مناطق التنمية ، وربما يكون هذا فى إحدى المدن الحديثة مثل ديمونة أو أرد فى النقب . وهناك يستطيع أن يحصل على مسكن من غرفتين أو ثلاث غرف أو شاليه دون صعوبة فى مقابل مبلغ يتردد بين ٢٥٠ ، ١٨٠٠ جنيه إسترلينى يتم سدادها على مدى عدة سنوات .

وبالطبع يختلف وضع الإسكان بالنسبة للمهاجرين الجدد كثيراً ، فمن حقهم الحصول على مسكن بالمجان ، وألا يبدءوا فى سداد الأقساط المستحقة على منازلهم أو شققهم قبل أن يتوفر لهم عمل ثابت مستقر . وعلى النقيض منهم نجد أن الرجل المهنى العادى الذى يحصل على دخل أعلى بكثير (قد يصل إلى ألفى جنيه إسترلينى سنوياً) ربما يواجه مشكلة إذا ما اضطره عمله إلى العيش فى إحدى المدن الكبيرة حيث ارتفعت إيجارات المساكن

بشكل حاد فى السنوات الأخيرة . ولكن التعويضات الألمانية (وهى التعويضات الشخصية التى قدمتها حكومة ألمانيا الغربية إلى الأفراد) ساعدت كثيراً من هؤلاء الناس وهم إسرائيليون من أصل أوروبى . فقد استطاعوا المحافظة على مستوى معيشتهم الأوربى إلى حد كبير بفضل هذه التعويضات ، وهو مستوى يتناقض بشكل واضح مع مستوى معيشة باقى السكان . وعلى أية حال فإن مايراه المرء فى المدن الكبيرة من سيارات خاصة وملابس حسنة ، وما يراه فى المنازل هناك من أثاث مريح وآلات الجرامافون والكتب يدل على ارتفاع مستوى معيشة سكانها . وهكذا فعلى الرغم من أن إسرائيل ما زالت دولة نامية (طبقاً للإحصائيات) تعانى من كل مشكلات النقص التى تصاحب عملية النمو ، فإنها لاتبدو كذلك إذا نظرنا إليها من شرفة أحد طوابق مساكن الطبقة الراقية فى تل أبيب .

وربما يشعر أحد عمال ديمونة بشيء من الحسد ، له ما يبرره عند زيارته لتل أبيب ومشاهدة كل هذه المظاهر ،ولكنه يتمتع دون شك بمزايا لم تمنحها سوى عدة دول قليلة تمر بمرحلة التنمية التى تمر بها إسرائيل لمواطنيها . فى حالة مرضه تقوم « الكوبات هوليم » وهى هيئة الخدمات الطبية التابعة للهيستدروت برعايته ، فإذا لم يكن عضواً بالهستدروت تولت علاجه عدة منظمات متطوعة ، وتتولى وزارة الصحة التنسيق بين كافة هذه المنظمات التى تتولى إدارة مستشفيات ، وعيادات خارجية ، ومراكز أبحاث ، وتقوم فيما بينها بتقديم الرعاية الطبية لجميع السكان حيث لا يقل مستوى الخدمات فيها عن مستوى الخدمات فى أى بلد من بلدان أوروبا الغربية . وفى الوقت نفسه تضمن العديد من التشريعات العمالية توفير ظروف عمل معقولة له فحددت ساعات العمل اليومية بثمان ساعات ، وتبلغ ساعات العمل اليومية الأسبوعية سبعاً وأربعين ساعة ، كذلك أصبح من حقه أن ينال أجازة سنوية بحد أدنى اثنى عشر يوماً . وبمقتضى قانون التأمين القومى ، الذى صدر فى عام ١٩٥٤ ، أصبح للعمال الحق فى الحصول على علاوات عائلية ومعاشات ومنح

فى حالات العجز ، ومعاشات للشيخوخة (ابتداء من سن ٦٥ عاماً للرجال وسن ٦٠ للنساء) بما يوازى ٤٥ شلناً فى الأسبوع للشخص الأعزب . وخمسة جنيهات أسترلينية أسبوعيًّا للزوجين ومن يعولانهم . وقد لا تبدو هذه المكافآت والعلاوات سخية أو مجزية إذا عرفنا قيمتها بالإسترليني باستثناء مزايا الأمومة وهى أعلى بكثير من مثيلاتها فى بريطانيا حيث إن الهدف من ورائها هو تشجيع النساء على الاستمرار فى العمل بعد إنجاب الأطفال . وما زالت تكاليف المعيشة الإجمالية فى إسرائيل أقل منها فى بريطانيا رغم ارتفاعها السريع ، الأمر الذى يجعل هذه المزايا متساوية فى البلدين تقريباً .

كذلك قامت إسرائيل بتطوير نظام للخدمة الاجتماعية بالغ التقدم ، تتولى فيه الحكومة إما إدارة مراكز الخدمة الاجتماعية الخاصة بها أو التنسيق بين الوكالات المتطوعة المتعددة التى دخلت إلى هذا الميدان ، ويتبع وزارة الشئون الاجتماعية مشرفون اجتماعيون ، وإخصائيون فى شئون الأحداث والطفولة وضباط مراقبة لمن يوضع تحت المراقبة (بعد قضاء مدة العقوبة أو غير ذلك) ويتعاون كل هؤلاء مع موظفى السلطات المحلية الذين يساعدون بدورهم المشرفين الاجتماعيين التابعين لمختلف المنظمات المتطوعة ومنها على سبيل المثال لا الحصر الها داساه (التى تدير مستشفى فى القدس) ومنظمة النساء الصهيونية العالمية ، وتتولى هذه المنظمات المختلفة إدارة مراكز للرعاية ونواد للشباب ، كما تقدم برامج للتوجيه المهنى . وفى الحقيقة تشمل خدماتها كافة مجالات النشاط الاجتماعى (وآخرها إنشاء مكتب لاستشارات الزواج) .

وعموماً لم تكن إنجازات الدولة فى مجال الصحة وأعمال الرعاية منذ عام ١٩٤٨ بالشىء اليسير . وبالطبع توجد حالات عديدة لم يرتفع التطبيق فيها إلى مستوى النظرية . حيث لم يلق الأفراد من بين جماهير المهاجرين اهتماماً إنسانيًّا كافياً ، رغم كل ماتوفر لهم من مساعدات عادية . فكثيراً ما تعرض المهاجرون لمواقف مؤلمة فى مكاتب الحكومة أو الوكالة اليهودية ، حيث كان يصيح فيهم موظفو الإسكان بحجة أنهم لا يفهمون ما يقال لهم أو لأنهم يرغبون

فى الإقامة فى مكان ما قررت السلطات المختصة ألا يذهبوا إليه . وكثيراً ما كان برنامج (من السفينة إلى المستعمرة) يعنى مصاعباً وشقاء لا مبرر لهما إذ أرسل بعض المهاجرين ممن لهم أقارب يعيشون فى أحد أطراف البلاد بانتظارهم إلى الطرف الآخر دون اعتبار لرغباتهم ، ودائماً ما تزيد البيروقراطية من متاعب الفرد وهكذا لم يساعد دائماً تعدد الوكالات التى تساهم فى عملية التهجير على شعور المهاجر بالاستقرار العاطفى ومع هذا تظل عملية استيعاب مليون مهاجر خلال خمسة عشر عاماً شيئاً يثير الإعجاب . ولم يكن ممكناً أن تتم عملية بهذا الحجم دون أية متاعب أو آلام .

وتزداد الهوة التى تفصل بين النظرية والتطبيق أكثر من هذا فى مجال التعليم . لقد كان إنشاء نظام كفء للتعليم من الأهداف التى أعطتها الحكومة أولوية بين مشروعاتها ، كما كانت الحال أيام الانتداب عندما حقق البيشوف إنجازات رائعة فى مجال التعليم فى جزء من العالم لا تتاح فيه فرص التعليم للكثيرين . وكان التعليم شيئاً يقدره اليهود حق قدره ، وفى عام ١٩٤٨ بدأت الحكومة فى توفير التعليم الأساسى لكل فرد بالمجان لتزيد من تلاحم المستوطنين الجدد فى مجتمع تقدمى ديناميكى ، وعلى أية حال فقد ثبت أن التلاحم كان أصعب قليلا — فى مجال التطبيق العملى — مما توقعه الذين أرسوا دعائم الدولة .

واليوم يبدأ التعليم الابتدائى المختلط المجانى فى إسرائيل فى سن السادسة وحجم الفصول فى إسرائيل كحجمها فى بريطانيا بحد أقصى أربعين تلميذاً . ولكن اليوم الدراسى أقصر حيث يمتد ما بين السابعة وخمس وأربعين دقيقة صباحاً والثانية عشرة ظهراً تقريباً ، وتلجأ بعض المدارس بسبب الازدحام إلى تطبيق نظام الفترات إحداهما صباحية والأخرى مسائية . وقد أصبحت مشكلة النقص فى المدرسين ، التى كانت مشكلة عامة ذات يوم ، نادرة الآن بعد البدء فى برنامج عاجل لتدريب المدرسين . ومن دلائل تقدير الآباء اليهود البالغ للتعليم وجود مجلس للآباء والمدرسين فى كل المدارس . بما فى ذلك المناطق التى لم يحظ الآباء فيها بمستوى عال من التعليم مما يجعلنا نتوقع اهتماماً أقل

من جانبهم بتعليم أبنائهم — ويمر الأطفال وهم فى سن الثالثة عشرة بامتحان عام يتم على أساس نتيجته — إن كانوا يرغبون فى إتمام مرحلة الدراسة الثانوية توزيعهم على نوعين من المدارس، وهما المدارس الثانوية العامة — والفنية — وعلى أية حال فإن غالبية التلاميذ يتركون المدارس فى سن الرابعة عشرة .

وهذه فكرة عامة عن الطريقة التى يسير عليها نظام التعليم فى إسرائيل . وهو يبدو مثيراً للإعجاب فى الظاهر . خاصة عندما نتذكر المشكلات التى واجهتها وما زالت تواجهها البلاد . فلم يكن من السهل توفير التعليم المجانى لكل الشباب الذين هاجروا إليها من كافة أنحاء العالم . وربما كان من المحتم نتيجة لهذا أن تظهر اليوم بعض الدلائل المثيرة للقلق تنتقص قليلا من هذا السجل الرائع ، فقد ظل الاتجاه العقائدى القوى الذى يتميز به التعليم اليهودى أيام البيشوف على ماهو عليه . ومن أمثلة هذا الآن أن ما يتلقاه الطفل ابتداء من العام الثانى لا لتحاقه بالمدرسة من دراسة دينية (التوراة ثم بقية العهد القديم) يفوق ما يتلقاه من مواد أخرى بشكل واضح ، كما تتضمن مواد الدراسة تاريخ إسرائيل وجغرافيتها المحلية . وهو أمر مفيد فى حد ذاته ، ولكن إذا أضيفت إليه دراسة جزء كبير من تاريخ العهد القديم فإنه يغرس فى الأطفال — ولا شك — شعوراً قوياً بالقومية أو حتى بالنعرة الوطنية . وتلك بالطبع هى احدى الوسائل الكفيلة بخلق ذلك الإحساس بالهوية أو بالذات الذى يفتقر إليه أطفال ينتمون إلى بيئات متفاوتة. ولكن المشكلة هى أن العالم العربى هو الهدف الطبيعى لهذه النعرة الوطنية سواء تمثل هذا فى خروج موسى من مصر الذى يدرسه الطفل فى التوراة ، أم فى حرب التحرير التى يدرسها من خلال دراسة لتاريخ إسرائيل . ولا شك فى أن التاريخ هو التاريخ ، ولا يمكن تفادى الصراع العربى — الإسرائيلى ، ولكن لم تبذل أى محاولات فى الوقت نفسه لتدريس اللغة العربية — رغم أنها اللغة الرسمية الثانية فى البلاد — أو الثقافة العربية فى المدارس الابتدائية كوسيلة . مهما كانت قاصرة ، لمحاولة تفهم الجانب الآخر بعض الشىء . وتوجد مدارس خاصة بالعرب المقيمين فى إسرائيل تتم الدراسة فيها

باللغة العربية . ورغم أن كل الأطفال العرب — تقريباً — يذهبون إلى المدارس الابتدائية ، فإن أقل من ٢ ٪ منهم يلتحقون بالمدارس الثانوية وتستكمل قلة من هؤلاء تعليمها العالى لتقوم بالتدريس أو أى أعمال أخرى فى نطاق الجاليات العربية، حيث لا توجد أبواب كثيرة مفتوحة أمامهم خارج مجتمعهم الخاص .

وبصفة عامة فإن الموقف على مستوى التعليم العالى سواء بالنسبة لليهود أم العرب يثير القلق فالفرص محدودة والمتاح منها يكون فى الغالب من نصيب الطلبة الذين ينتمون إلى أصل أوروبى أكثر من غيرهم من قطاعات المجتمع . وتتمتع جامعات إسرائيل الأربع بمستوى عال من التعليم وإن كان طلبتها يمثلون ١٪ من عدد السكان فقط ، وهذه الجامعات هى الجامعة العبرية بالقدس (ويتبعها معهدان للتعليم العالى أحدهما فى حيفا ، والآخر فى بير سبع) ، وجامعة تل أبيب ، وجامعة بارالان الدينية — والمعهد التكنولوجى فى حيفا . وتبدأ عملية تقسيم التلاميذ إلى فئات مختلفة فى وقت مبكر . إذ يجب على والد الطفل عند إلحاقه بالمدرسة فى سن السادسة ، أن يسجل على نحو معين البيئة أو الأصل الذى ينتمى إليه الطفل . وهكذا نجد أن الطفل غالباً ما يعتبر —حتى بوساطة مدرسيه أقل قدرة من غيره إذا كان ينتمى إلى أصل غير أوروبى . وذلك بحجة أن الأمر يحتاج إلى عدة أجيال لتغير العوامل البيئية — ويستطيع التعليم الإسرائيلى . على أحسن الفروض — تخريج أناس بلغوا القمة فى علوم تخصيصهم أو إقامة معهد مثل معهد وايزمان للعلوم فى رحفوت الذى حازت أبحاثه على شهرة عالمية . ولكن الوصول إلى هذه المرحلة ، أو حتى إلى أولى درجات السلم عند مستوى الجامعة أمر بعيد المنال بالنسبة للغالبية العظمى من الإسرائيليين .

وأخيراً نلقى نظرة على الوضع السياسى لأن إسرائيل مازالت — بغض النظر عن عدم التكافؤ الاجتماعى وغيره من نواحى التباين — بلداً ديمقراطياً . فقد كانت السياسة دائماً أمراً جاداً أيام البيشوف وما زالت كذلك حتى الآن . إذ تخضع كل حركة فى مجال السياسة لمناقشات مفصلة عامة . وخاصة ، وإن كان يتم هذا فى إطار حدود معينة تفرضها أوضاع الأمن ودواعيه. ويتضح

هذا من عدد الصحف اليومية التى تصدر فى إسرائيل إذ يبلغ عددها ست عشرة صحيفة عبرية وتسع صحف بلغات متنوعة أخرى وقد فضلت إسرائيل نظام التمثيل النسبى على أى نظام انتخابى آخر ، بسبب طبيعة السكان غير المتجانسة . وتنوع اهتمامات قطاعاتهم المتعددة . وتجرى انتخابات الكنيسيت مرة كل أربع سنوات ، حيث يقدم كل حزب قائمة بمرشحيه وتوزع المقاعد (ومجموعها ١٢٠ مقعداً) طبقاً لعدد الأصوات التى تحصل عليها كل قائمة . ويتولى الكنيسيت انتخاب الرئيس . وهو رئيس اعتبارى للدولة ، لما لا يزيد على مدتين كل منهما خمس سنوات ، إلا فى بعض الحالات الاستثنائية كما حدث بالنسبة لابن زفى[1] (١٩٥٢ — ١٩٦٣) ودائماً ما يتولى رياسة الوزارة زعيم أكبر حزب فى الكنيسيت الذى يختار أعضاء حكومته غالباً من الكنيسيت ، وإن كان من حقه كذلك أن يختارهم من خارجه ويضم الكينسيت فى الوقت الحالى أحد عشر حزباً سياسياً . يشكلون فيما بينهم كتلتين . إحداهما كتلة أحزاب اليسار ويسار الوسط الذين يمثلون الهستدروت ، ويشكلون فى الواقع كتلة عمالية ، والأخرى كتلة أحزاب اليمين ويمين الوسط وهؤلاء لا ينتمون إلى الهيستدروت . ويتصدر الكتلة الأولى حزب الماباى الذى انضم إلى أحدوت هاعفودا . من أحزاب يسار الوسط ليكونا ما عرف باسم « التحالف» وفازا بذلك بأكبر نصيب من مقاعد الكنيسيت (أو ٣٧٪ منها) فى انتخابات عام ١٩٦٥ — ويلى الماباى من ناحية الأهمية فى الكتلة العمالية حزب رافى وإن كان الفارق بينه وبين الماباى مازال كبيراً) وهو حزب جديد أنشئ عام ١٩٦٤ بوساطة جماعة انشقت على الماباى ، فإذا اتجهنا إلى اليسار أكثر من هذا نجد حزب المابام ، ثم الحزب الشيوعى فى أقصى اليسار وقد انقسم

---

(١) رؤساء إسرائيل :

حاييم وايزمان	١٩٤٨ — ١٩٥٢
إسحاق بن زفى	١٩٥٢ — ١٩٦٣
زالمان شازار	١٩٦٢

بعد انتخابات عام ١٩٦١ إلى حزبين ويحظى الحزب الشيوعى بأصوات العرب رغم أن أربعة من أعضاء الكنيسيت من العرب ينتسبون إلى الماباى ولكن معظم الرأى العام العربى — كما هو متوقع — يعادى الماباى والمؤسسة الإسرائيلية التى يمثلها .

ويوجد فى الطرف الآخر من المسرح السياسى حزب حيروت ، وهو الخصم الرئيسى للماباى . وحيروت حزب يمينى ينتمى إلى جماعة المراجعيين الذين ظهروا أيام الانتداب البريطانى . ويتحالف الآن مع الحزب الليبرالى وإلى يمين حيروت يوجد حزب أجودات إسرائيل وهو حزب دينى متطرف ويعتبر الحزبان الدينيان الآخران فى الكنيسيت وهما الحزب الدينى القومى وحزب يوالى أجودات إسرائيل أقل تحفظاً ويشتركان فى واقع الأمر فى الحكومة الائتلافية .

ويرجع تعدد التحالفات والانقسامات التى تجعل الحياة السياسية فى إسرائيل تبدو وكأنها خليط من نماذج دائمة التغيير لا تستقر على حال ، ويرجع هذا إلى عجز أى حزب عن الحصول على أغلبية مطلقة فى الكنيسيت ودائماً ما كان الماباى فى المقدمة بمتوسط قدره ٣٥٪ من المقاعد ، يليه حزب حيروت (بعد تحالفه مع اللبراليين) بنسبة قدرها ٢١ ٪ من المقاعد — وقد نجح كل منهما فى الحيلولة دون قيام الآخر بتأليف حكومة من مؤيديه وحدهم . وهكذا كانت الحكومات المتعاقبة منذ البداية ائتلافية حيث توسطها الماباى ليختار أفضل من يستطيع العثور عليهم من حلفاء فى الأحزاب الأخرى — وكان الماباى ، فى ظل زعامة بن جوريون ما بين ١٩٤٨ ، ١٩٦٣ يتجه أحياناً إلى اليسار طلباً للتأييد ولكنه كان يتجه فى أغلب الأحوال إلى أحزاب الوسط الدينية ، فدائماً كان الثمن السياسى الذى تطالب به الأحزاب الدينية نظير تأييدها أقل مما يطالب به الجناح اليسارى . فكانت تقنع بالوزارات « الأصغر » التى ترتبط بالشئون الداخلية . فى حين كانت أحزاب اليسار تميل إلى التدخل فى الشئون الاقتصادية والسياسية الخارجية والدفاع الذى اعتبره بن جوريون من الأمور التى

يجب أن يتولاها برعايته بنفسه .

وكان لاعتماد الماباى الدائم على تأييد الأحزاب الدينية آثار خطيرة جداً على البلاد . حيث أعطى للجناح الدينى مزايا هامة وبخاصة فى مجال قانون الأحوال الشخصية والتعليم . وتقف المدارس الدينية على قدم المساواة مع المدارس الأخرى التى يضمها الجهاز التعليمى فى الدولة ، حيث تتولى الحكومة تحويلها بالكامل . ومع هذا فإن المقررات الدراسية بطبيعة الحال تزخر بالتعاليم اليهودية التقليدية . ولا بد أن هذا وغيره من التناولات التى نجحت الأحزاب الدينية فى الحصول عليها من الحكومة ، هذه التناولات التى تتناقض مع التيار العام الذى يسود معظم بلاد العالم الآن — والذى يرمى إلى زيادة الفصل بين الدين والدولة ، الأمر الذى يشجع على قبول الوزارات الثانوية فى الحكومة .

ولا شك فى أن هذا التحالف بدا من وجهة نظر الماباى ، أمراً مرغوباً فيه لأنه أتاح لهم حرية وضع سياستهم الرئيسية بالطريقة التى يرونها دون ما اكتراث لاحتجاجات المتطرفين سواء فى أقصى اليمين أو أقصى اليسار ، وقد ثارت مناقشات وجدل عنيف حول عدد من المشكلات والقضايا منها : موضوع التحالف فى الحرب الباردة الذى أثير فى السنوات الأولى بعد إنشاء الدولة عندما طالبت أحزاب الجناح اليسارى بارتباط أقل بكثير مع الجانب الأمريكى . ومسألة علاقات إسرائيل بألمانيا التى وصلت إلى ذروتها فى عام ١٩٦٥ بتبادل السفراء بين الدولتين الأمر الذى عارضه حزب حيروت بشدة وموضوع التنازلات التى تقدم للأحزاب الدينية بصفة عامة والتى أثارت احتجاجات مريرة من جانب أحزاب اليسار .

ولا يمكن لأية حكومة أن تتطلع إلى حياة سهلة فى الكنيست بسبب طبيعة هذا التكوين السياسى . ولكن الماباى استطاع تحت زعامة بن جوريون الحازمة . أن يتغلب على العواصف ويقاومها بنجاح حتى عام ١٩٦٣ عندما انشق الحزب على نفسه . فشهدت البلاد اضطرابات سياسية حادة . واستقال بن جوريون فى ذلك العام ، ولكن التقاعد لم يكن أمراً يقبله بسهولة شأنه فى ذلك

شأن عديد من الساسة العظماء . ولهذا سرعان ما حاول العودة إلى مسرح السياسة مرة أخرى متحدياً قيادة الماباى الجديدة برئاسة خليفته ليفى أشكول . الذى كان يشغل منصب وزير المالية فى حكومة بن جوريون وقصة محاولة العودة إلى الحكم . والأزمة التى نجمت عن هذا قصة محيرة ومشوشة . فقد كانت القضية التى اختارها بن جوريون مجالا لصراعه تتعلق بمشكلة أمن قديمة ترتبط باسم « بنحاس لافون » الذى كان على رأس الهيستدروت فى عام ١٩٦٣ . وقد أدت « فضيحة لا فون » وهو الاسم الذى عرفت به الأزمة فيما بعد . إلى سلسلة لا معنى لها من الاتهامات والاتهامات المضادة ، والتحقيقات ، والجلسات ونجم عن هذا كله انقسام حزب الماباى على نفسه ، وفى عام ١٩٦٤ كون بن جوريون حزبه الخاص « رافى » وخاض فى العام التالى الانتخابات كزعيم للحزب ولكنه لم يفز إلا بـ ٨ ٪ من مجموع أصوات الناخبين .

وكان هذا إشارة بانتهاء عهد بن جوريون . ولكن مغزاه كان أكبر من مجرد موت رجل واحد سياسيًّا . لقد هزت « فضيحة لافون » البلد بأسره كما لم تهزه أية أزمة حكومية من قبل. ولأول مرة ظهر الخلاف واضحاً للعيان بين قادة البلاد . الذين لم يسبق أن أساء لهم الناس حول مسائل السياسة الرئيسية . وبدءوا يتصارعون علناً من أجل خلافته . وكان الموضوع الذى اختاروه مجالا لمعركتهم من أكثر الموضوعات المحرمة ألا وهو موضوع الأمن .

ولكن بالرغم من الضجة التى ثارت وقتذاك ، لم يتغير الموقف ولو تغيراً ظاهريًّا — فيما بعد — إلا قليلا . فقد استمر التحالف السياسى الأساسى بين الماباى — وخليط من أحزاب يسار الوسط . والأحزاب الدينية ويمكن القول بأنه حدث تغير فى السياسة إلى حد ما . فلو كان بن جوريون قد استمر فى الحكم أو خلفه أحد أتباعه الأصغر سنًّا (موشى ديان أو شيمون بيريز) فى رياسة الحكومة ، لكانوا قد اتبعوا ، دون أدنى شك ، سياسة أكثر عداء تجاه الدول العربية .

وعلى الرغم من الاستفزازات المتعددة وبخاصة من جانب سوريا ، فقد

اتبع أشكول فى البداية سياسة أكثر ليناً تجاه الدول العربية ، ومع هذا قام الجيش الإسرائيلى فى خريف عام ١٩٦٦ بهجوم ساحق على قرية السموع فى الأردن وكان حجم الهجوم لا يتناسب إطلاقاً مع أى شىء ارتكبه الأردن ضد إسرائيل وآنذاك كان الناس فى حيرة من أمرهم فلم يستطيعوا تفهم دوافع إسرائيل على شن مثل هذا الهجوم ، خاصة بعد أن أدانته الأمم المتحدة بشدة ، إلا فى حدود الهدف العسكرى ، وهو القضاء على وحدات المتسللين التى كانت تتخذ من هذه القرية قاعدة لها ، ولكن ربما كانت هذه الغارة نتيجة لليأس أكثر من أى شىء آخر قصد بها تعنيف حكومة ضعيفة فشلت بعد سنوات من البحث ، فى إيجاد مخرج من المأزق . فلم تظهر فى أعقاب حرب السويس وفضيحة لا فون مفاهيم ثابتة جديدة بدلا من كثير من المعتقدات القديمة التى تهاوت ويبدو أن الحكومة وخصومها كانوا فى حيرة من أمرهم ، مترددين بعض الشىء بشأن تحديد اتجاه البلاد فى تلك المرحلة .

وربما يقول أحد المتشائمين : إن إسرائيل شاركت سوريا مسئولية تدهور العلاقات بينهما ، هذا التدهور الذى سبق حملة ناصر الدبلوماسية فى صيف عام ١٩٦٧ . ويجب ألا نغفل هذا القول — الذى يقوم على أساس أن الحكومة الإسرائيلية قررت تطبيق سياسة حافة الهاوية لفترة ما بقصد رفع الروح المعنوية للشعب بعد أن وصلت الهجرة إلى أدنى مستوى ، وساد الجمود والكساد المجال الاقتصادى — وذلك لأن كثيرين يعتقدون فى صدقه وسلامته بما فى ذلك العالم العربى بأسره . وبطبيعة الحال يرفض الإسرائيليون هذا التفسير ، ويعتقدون بصدق أن الاستفزاز جاء كلية من الجانب العربى . وكان شعور اليأس الذى انتاب الإسرائيليين بسبب إحكام الخناق عليهم ، كما سبق أن رأينا ، ضخماً حتى أنهم بدءوا (مثل البريطانيين عندما وحدوا صفوفهم وراء تشرشل فى الأربعينيات ، يتطلعون إلى رجل واحد لإنقاذهم وهو موشى ديان (رغم أنه من المستبعد أن يكون قد لعب دوراً فى التخطيط للحرب لأنه تولى وزارة الدفاع قبل نشوبها بأيام قليلة) . ولكن بالرغم من أن تعيين ديان عضواً فى الحكومة

كان بداية لفترة من الهدوء المؤقت فى الصراع بين الماباى ، ورافى ، فلم يتم اندماج الحزبين فى حزب واحد ، الأمر الذى كان محل بحث فى أعقاب الحرب . وظل ديان يشغل منصب وزير الدفاع فى الحكومة ، رغم استمرار الخصومات القديمة بين المعتدلين (ويمثلهم أشكول) والمتطرفين (ويمثلهم ديان) من وراء الواجهة المتحدة ظاهرياً . وحدثت انقسامات كبيرة فى الرأى حول عديد من القرارات الهامة التى واجهت الحكومة بعد الحرب (ومنها تعريف الحدود الجديدة للدولة وفى محاولة إيقاف خروج المهاجرين أو السماح لهم بالعودة ، أى كل ما يتعلق فى حقيقة الأمر بالسؤال الهام الذى يدور حول ما يجب عمله حيال الأراضى التى تم الاستيلاء عليها أخيراً وسكانها) . وزاد من حدة الصراع بين المجموعات المختلفة أن ديان لم يحاول إخفاء مطامحه فى أن يتولى رئاسة الوزارة حينما يتخلى عنها أشكول) .

اليوم وغداً

حاربت إسرائيل جيرانها العرب وهزمتهم ثلاث مرات خلال العشرين عاماً التى انقضت على إنشائها ، وكانت الحرب ، التى بدت حاسمة فى كل مرة بل إنها كانت كذلك بالفعل من الناحية العسكرية ، مجرد بداية لفترة أخرى من التوتر والعداء . ينفجر بعد عقد آخر ليشعل القتال من جديد . ومن الواضح أن من أكثر الأمور خطورة بالنسبة لمستقبل إسرائيل هو معرفة ما إذا كان هذا الوضع سيستمر ، فهل سنشهد مجرد تكرار لسفك الدماء الذى يحدث مرة كل عشر سنوات ، أم أن هناك أخيراً فرصة لتسوية ما ؟

تميل أى دولة — وإن لم يكن لديها إحساس قوى بتاريخها كهذا الإحساس الذى يشب الإسرائيليون عليه — إلى أن تكون أسيرة لماضيها ، ومن الصعب التمشى مع الحاضر عندما تتعاقب الأحداث كالسيل المنهمر بسرعة ، فقد واجه الإسرائيليون فى بداية يونية عام ١٩٦٧ ، احتمال القضاء عليهم ولم يخطر ببال

أحد منهم ، حتى فى أقصى أحلامه جموحاً، أنه قد يستطيع ، فى أقل من أسبوعين الوصول إلى حائط المبكى . وتناول سندويتشات الفلافل فى مدينة القدس . ولكن المستحيل تحقق بعد أسبوعين ، وسقط حوليات ، رمز التهديد العربى محطماً منهاراً . ولم يسقط حكم أى زعيم عربى ، ولكن كان من المتوقع أن تتعرض الدول الثلاث التى عانت من وطأة الحرب لبعض الخسائر قبل أن تخمد آخر موجات الصدمة ، لقد أصبحت الأردن الآن حطاماً بلا رأس ، وأصيبت صناعة السياحة وهى مصدر الدخل الرئيسى بها بالشلل ، وزاد حجم اللاجئين بين سكانها زيادة كبيرة — وقدرت خسائر الجيش المصرى وحده ببلايين الدولارات وكان من أول ردود الفعل للحرب فى إسرائيل الشعور بأن العرب قد يرغمون أخيراً على قبول السلام (وكثيراً ما قيل إن « القوة » هى اللغة التى يفهمونها » وكان هذا تعبيراً عن لهفة الإسرائيليين وتطلعهم الخالص للسلام لأنه إذا لم يفهم العرب لغة القوة فإن معنى هذا بوضوح هو أن إسرائيل سارت فى الطريق الخطأ .

ولا شك فى أنه من الممكن فرض معاهدات لتحقيق السلام الدائم تحت تهديد السلاح ، ونسيان ثلاث هزائم متعاقبة . ولكن التعقيدات ، الضخمة التى تحيط بالمشكلة الفلسطينية تجعلها حالة خاصة بذاتها إلى حد ما وهناك أمثلة قليلة فى التاريخ ، كما أوضح أبا إيبان، عن دولة منتصرة تطلب السلام ، بينما يرفض الجانب المهزوم التفاوض معها . ويبدو أن القواعد العادية لا تنطبق على النزاع العربى الإسرائيلى أو ربما كان من الأصح أن نقول : إنه فى موقف من أكثر المواقف سوءاً كهذا ، حيث تثير آلام الطرفين (اليهود فى أوربا ومن بعدهم اللاجئون العرب) مشاعر تتحدى كل نقاش منطقى ، يكون لردود الفعل الإنسانية الغريزية العادية دور هام فى توجيه الأحداث . ويبدو أن الهزيمة لم تخفف من عناد الجانب العربى ، فى حين يبدو أن النصر قد لعب برأس الحكومة الإسرائيلية (يلاحظ هنا تصريحات موشى ديان الطنانة ، التى انتقصت كثيراً من المزايا الدعائية التى حققتها إسرائيل قبل وأثناء الحرب ،

وكذلك الإجراء المتهور الطائش الخاص بضم مدينة القدس القديمة إلى إسرائيل هذا الإجراء الذى أدانته الأمم المتحدة) .

(ولكن لنلق نظرة على سبيل الممكنة لتحقيق السلام ، وهناك منها ثلاثة سبل على وجه التقريب هى : إذا وافق العرب من تلقاء أنفسهم على التفاوض أو إذا أبدى الإسرائيليون من روح التوفيق والمسالمة ما يجعل من المستحيل على العرب أن يرفضوا التفاوض ، أو إذا استطاعت الدول الكبرى ، وهى تعمل من خلال الأمم المتحدة أن تفرض تسوية على المنطقة .

ولنبدأ بمناقشة السبيل الأخير . . . لقد عجزت الأمم المتحدة عن إصدار قرار بوقف إطلاق النار قبل أن تنتهى الحرب فعلا أو عن وضع سياسة موحدة ومتفق عليها بعد ذلك ، لأن كلا من روسيا والولايات المتحدة كانت تسير فى اتجاه معاكس للأخرى . ومن المثالى أن نفكر فيما كان من الممكن أن يحدث لو لم يكن هذا موقفهما . وسوف تلتزم روسيا ، فى المستقبل القريب ، بتأييد العرب دبلوماسياً ، كما ستقدم الولايات المتحدة لإسرائيل تأييداً بنفس الفاعلية وإن كان أقل علانية إلى حد ما . وقد أيدت كل من روسيا والولايات المتحدة أول مشروع للتسوية (الذى قدمه الرئيس اليوغسلافى تيتو) والذى دعا فيه إلى انسحاب القوات الإسرائيلية من المناطق المحتلة فى مقابل ضمانات من الدول الكبرى بحدودها ، واعتراف العرب ضمناً بها . ولكن إسرائيل رفضت المشروع على أساس أن مثل هذه الضمانات لن توفر لها أى أمن حقيقى مما يعنى بقاء الوضع فى أساسه على ما كان عليه دون تغيير .

ونوقش فى مؤتمر القمة العربى الذى عقد بالخرطوم بعد مرور ثلاثة شهور على الحرب ، احتمال قيام العرب بإنهاء حالة الحرب مع إسرائيل ، ولكن جاء البيان الختامى عن أعمال المؤتمر خلواً من أية إشارة إلى هذا الموضوع . ومازالت الهوة التى تفصل بين المعتدلين والمتطرفين من العرب واسعة يتعذر معها على العالم العربى ككل قبول أى خطوة فى هذا الاتجاه . وفى الوقت نفسه تتراوح ردود فعل السكان المحليين فى الأراضى العربية المحتلة بين الإذعان الذليل ، والاستياء

العارم . ويستطيع مليون ونصف المليون من السكان الذين يعيشون فى هذه المناطق أن يجعلوا الحياة بالغة الصعوبة دون شك بالنسبة لإسرائيل إذا ما قررت الاحتفاظ بكل أو بمعظم هذه الأراضى ، لأن عددهم سيفوق عدد الإسرائيليين فى خلال جيل واحد .

وهكذا تواجه إسرائيل مشكلة بالغة الصعوبة ، فمن الواضح أن لها أطماعها فى الأراضى التى حصلت عليها حديثاً (من الواضح أنه لا بد من إجراء بعض التعديلات على الحدود حتى لو أعيدت معظم الأراضى إلى العرب ولكن يبدو أن كثيراً من الإسرائيليين قد وضعوا نصب أعينهم ماهو أكثر من هذا) ولكن إذا استوعبت إسرائيل سكان هذه المناطق من العرب ضمن سكانها فإنها ستفقد طابعها الأساسى كدولة يهودية ، على أن اخضاعهم لنوع من « التبعية » لن يكون عملا غير إنسانى فحسب بل ربما يكون متعذراً خلال مدة قصيرة أيضاً .

ويبدو أن سياسة تقوم على التوفيق هى أكثر السبل تعقلا وعدلا ، وإن كان من الصعب على أى زعيم إسرائيلى أن ينادى بها ، لأن مشاعر غالبية الإسرائيليين ، بأن إسرائيل لا تستطيع أن تخاطر باتخاذ موقف متساهل من العرب ، لها جذور عميقة جداً ترتبط بدروس تعلموها ، وجراح عانوا منها قبل عام ١٩٤٨ بكثير إذ يبدو « الحل الوسط » فى نظر كثير من الإسرائيليين وكأنه ينطوى على روح الهزيمة ، بالإضافة إلى ماله من مدلولات غير مرضية . وقد برز هذا المعنى فى عام ١٩٦١ أثناء محاكمة النازى أدولف أيخمان فى القدس . فقد كانت القصة التى كشفت عنها المحاكمة جرحاً أكيداً بالنسبة لكثير من شباب الجيل الجديد من الإسرائيليين ، الذين تساءلوا كيف كان من الممكن أن يذبح ستة ملايين شخص دون أن يبدوا أية مقاومة تذكر ؟ واعتبر الاضطهاد النازى نتيجة قصوى لروح الهزيمة التى ساعدت عقلية المنفى على نموها ، وكانت بالتالى سبباً فى تكوين هذه العقلية ذاتها .

وكان إنشاء دولة إسرائيل وسيلة للخروج من هذه الدائرة المفرغة ولكن

التمرد على المنفى لم يكن قد خفت حدته لأنه كان جزءاً من التاريخ الحديث مازال ماثلا فى الأذهان . ولهذا فقد تبين أن انتهاج أسلوب إيجابى فى الحياة ، هو جزء لا يتجزأ من عملية « إنقاذ الشعب اليهودى » وجمع شتات الشخصية اليهودية .

وما زال الشباب فى إسرائيل الذين لا تعنى كلمة انقاذ (الشعب اليهودى) أى شىء بالنسبة لهم ، يحددون مواقفهم لا شعورياً على أساس هذا النوع من الفلسفة . وهذا أمر مفهوم فى إطار رد الفعل النفسى إزاء الماضى .ولكن عندما يطبق الشىء نفسه على موقف سياسى فإنه يطرح تساؤلات حرجة . ومما يزيد من صعوبة الموقف ، فى مجال علاقات إسرائيل بالعرب . أن ما أظهره جميع العرب من معارضة عنيدة تجاه استيطان اليهود فى فلسطين منذ أيام الانتداب الأولى جعل اليهود يشعرون بأنهم فى حل من كل مسئولية أدبية تجاههم فمن الصعب أن تكون رقيقاً مع شخص تعتقد أنه سيطعنك من خلف (وقد يقول العرب الشىء نفسه) . وهكذا لم يكن لدى اليهود، عند قيام دولتهم ، شعور كاف بالمسئولية تجاه العرب ، يستوى فى هذا العالم العربى على سعته ، أو المائة والخمسون ألف عربى الذين اختاروا البقاء فى إسرائيل ، أو اللاجئون الذين فروا من فلسطين . وعززت ذكرى حرب عام ١٩٤٨ ، عندما شن العرب هجومهم على إسرائيل ، وما تلا ذلك من غارات المتسللين هذا الشعور بالمناعة الأدبية . وزاد هذا الشعور حدة نتيجة للخوف ، حتى بعد انتصار إسرائيل الساحق ، فما زالت صورة دافيد وجوليات تتمثل فى إسرائيل بسكانها الذين لا يزيد عددهم على ٢٫٥ مليون نسمة ، ويحيط بها ٩٦ مليون عربى يتحفزون للانتقام منها .

وتعترض طريق السلام بعض المصاعب . وقد اقترح أبا إيبان ، قبل الحرب وسيلة غير مباشرة ، تستطيع إسرائيل عن طريقها أن تلتف حول هذه المشكلات لتخرج من فترة الغسق أو ما يمكن أن تسميه بحالة « اللاحرب واللاسلام » التى تعيش فيها فقال :إنه يجب على إسرائيل أن تشدد من تحركها الدبلوماسى فى

المجال الدولى الأوسع . وطبقاً لنظريته فإنه إذا ما توفر قدر كاف من حسن النية لتكوين « حاقة خارجية » من دول تقبل وجود إسرائيل فإن هذا سيؤثر تدريجياً على الحاقة الداخلية « أو القلب الجامد » الذى يتكون من دول الشرق الأوسط والدول الأفريقية العربية الأمر الذى يضطرها إلى الاعتراف بإسرائيل كذلك . وقد حققت إسرائيل تقدماً فى هذا المجال حتى نشوب الحرب الأخيرة فأرسلت ألفى خبير إلى الدول النامية للعمل كمستشارين فى مجالات الزراعة والرى وتخطيط الريف ، وصناعة الأدوية وغير ذلك . وبلغ حجم الإنفاق على « أنشطة التعاون الدولى » فى عام ١٩٦٦ ثلاثة ملايين دولار شكلت نواة ميزانية أضافت إليها الحكومات التى تتلقى المساعدات الإسرائيلية مبالغ أخرى . وأنشأ الهستدروت معهداً آفرو آسيوياً فى تل أبيب يتلقى العلم فيه ما يقرب من تسعة آلاف طالب من الدول النامية . وأثناء هذا أظهر موقف هذه الدول النامية فى الأمم المتحدة والذى كان قد بدأ فى التحول ببطء ليصبح أقل عداء لإسرائيل ، إن هذه السياسة قد بدأت تؤتى ثمارها . ومهما كان الأمر فقد تدهورت سمعة إسرائيل بعد الحرب الأخيرة فى هذه الدول . ولا شك فى أنه سوف تبدأ من جديد عملية توفير النوايا الحسنة وهى عملية بطيئة مرهقة ، فإذا تحقق النجاح السابق فى هذا المجال وأمكن المحافظة عليه مدة كافية فربما يؤدى هذا (كما يقول إيبان) إلى « التمهيد لجو أكثر إيجابية لمبادأة دبلوماسية ، أو بمعنى آخر « لكسر الحاقة الداخلية » والنفاذ إليها .

وبالطبع فإن ما يريد كل فرد فى إسرائيل معرفته هو كم تحتاج هذه العملية من وقت ؟ وينمو الإحساس بزوال الوهم كلما قدم العهد بالدولة وخفت حدة المشاعر الوطنية . ويظهر أثر هذا واضحاً فى معدل الهجرة من إسرائيل (الذى فاق فى بعض الفترات ، معدل الهجرة إليها الأمر الذى أدى بالحكومة إلى إعادة النظر فى تقديراتها الأصلية عن زيادة السكان بنسبة ٤ ٪ سنوياً) . كما يظهر أثره أيضاً فى نوع من القلق ينتاب شباب الجيل الجديد إزاء علاقات إسرائيل « بالمنفى » فرغم أن « المنفى » يزود إسرائيل بالمهاجرين (الذين تعتبرهم الحكومة

شريان الحياة فى البلاد) طالبت الأحزاب السياسية على اختلافها ، ما بين اليسار والأحزاب الدينية ، بتعريفات جديدة ، وأشارت إلى أزمة الهوية بين إسرائيل ، ويهود العالم ، ولا يرى الجيل الأكبر من أمثال بن جوريون وأشكول الذى نشأ فى وقت كانت علاقة الييشوف والمنفى فيه أكثر ترابطاً والتحاماً ، أى تناقض أو توتر بين الاثنين . ويضايق الجيل الجديد الذى يشعر برغبة فى التخلص من كل سيطرة أو قيود للمنفى ، اعتماد بلادهم عليه .

ولسوء حظ هؤلاء الناس (الذين ينطلق بحثهم عن تعريفات جديدة من رغبة صحية فى رؤية بلادهم تقف على قدميها) تحول الحقائق الاقتصادية القاسية دون حدوث أى تعديل جذرى فى المنهج القديم . بل على العكس من هذا فربما سيزيد اعتماد إسرائيل على يهود العالم فى المستقبل القريب لتوفير الأموال والمهاجرين لها . وستحاول الحكومة بكل تأكيد زيادة معدل الهجرة إلى إسرائيل إذا استطاعت الصمود فى وجه الضغط الدولى والاحتفاظ ببعض أو كل المناطق المحتلة .

وقد حل نوع من الجمود (أو سكون الحس والحركة) محل الابتهاج الذى ساد الإسرائيليين بعد الحرب مباشرة ، لأنه ليست لديهم أدنى فكرة عما سيكون عليه مستقبل بلادهم وما زال كثير من الأمور معلقة دون حل . ويتوقف الكثير على ما سيتخذ إن آجلا أو عاجلا من قرارات سياسية خطيرة . ويقول البعض إنه لو وجدت إسرائيل نفسها تعيش على اتصال وثيق بعدد من السكان العرب يماثل عدد سكانها فسيعود الموقف إلى ما كان عليه من سوء خلال عهد الانتداب . ويتكهن المتفائلون ، رغم هذا ، بنشوء دولة ذات قومية مزدوجة (وإن كان يصعب تصور حدوث هذا بعد أن رفض الييشوف هذه الفكرة بطريقة حاسمة خلال عهد الانتداب) . ويشيرون إلى القدس الموحدة حيث يختلط الناس من كل جانب بعضهم بالبعض الآخر دون أى احتكاك على ما يبدو — مما يزيد من سمرة الوجوه ويجعل الأوروبيين أكثر وضوحاً بقليل وسط الآخرين .

فهل فى هذا ما ينبئ بشىء عن المستقبل ؟ من المحتمل أن يكون قادة إسرائيل يمكرون فى اتخاذ القدس عاصمة مشتركة لإسرائيل ، ولدولة فلسطينية (عربية مستقلة) . وقد اقترحت الأمم المتحدة إنشاء مثل هذه الدولة فى عام ١٩٤٧ ، ولكن يصعب أن تتصور كيف لها أن تقوم الآن ، إذن سيتوقف وجودها على سماحة إسرائيل وموافقتها مما يعنى انعدام صلتها بالضرورة ببقية العالم العربى .

وفى أفضل الحالات يمكن لهذه الدولة التى تضم اليهود والعرب على قدم المساواة ، وتتيح لكل منهم زيادة معرفته بالآخر ، أن تكون فى المستقبل البعيد جسراً بين العالمين .

ورغم أنه ربما كان رجل الشارع العربى واليهودى يعيشان فى أخوة فى القدس فإنه يبدو أن قادتهم السياسيين قد عقدوا العزم على اتباع مسالك هدفها عرقلة أية تسوية . ومن الصعب أن نعرف هل كان هذا مرده مجرد قصور ذاتى أم نتيجة لتخطيط وتدبير . ويبذل قادة كل البلاد المعنية (بما فى ذلك إسرائيل) قصارى جهدهم للمحافظة على أوضاعهم فى وجه سيل النقد الجارف من مواطنيهم وربما تأتى الآن المشكلة الفلسطينية فى المرتبة التالية للمشكلة العاجلة الخاصة بكيفية البقاء فى الحكم . ولكنها قضية مرهقة لشعب إسرائيل حتى اليوم . فرغم ما حققوه من انتصار يشوب بعض اليأس أملهم فى أن يكون الغسق الذى عاشوا فى ظله بداية للفجر وليس بداية للغروب .

وزارة الإرشاد القومى
الهيئة العامة للاستعلامات

